جامـــعة واســـط
مجلَّـــــــة كُلِّيَّـــــــة التَّربيـــــــة

العـدد الثاني والأربعون
الجزء الثاني/ شباط/ ٢٠٢١

النَّصُّ الواصف ـ العَدَسةُ والقُرْص
مقاربات إبستمولوجيَّة في أبجديَّة التَّحليل النَّصِّيّ قديماً وحديثاً
القسم الأوَّل

أ.م.د. عِماد جبَّار كاظم داود
جامعة واسط . كُلِّيَّة التَّربية للعلوم الإنسانيَّة
imadjabbar@uowasit.edu.iq

الملخَّص:

يُشرق النَّصُّ متّشحاً بألوان طيفٍ، يقوم على ركائز فلسفيَّة متعدِّدة، تتّصف في كونٍ أصوليّ، موضوعيّ، بنيويّ، إرساليّ تارةً، ووصفيّ، حمولِيّ، تحويليٍّ، نقديّ، معرفيّ، في أخرى، ليكون **الأوَّل**، وهو العقل المكوِّن ـ مستوى التَّصوُّرات والهويّات والخلفيَّات والافتراضات والعوالم الأولى: البدهيّ منها والكسبيّ ـ مقدِّمةً قبليَّة تُعتمد في النَّظر والتَّوجيه. **والثاني** بَعْدي، عبارة عن نتائج منه، أي: من النَّصّ؛ بوصفها مقولات تعريفيَّة وحمولات نصّ واصف/خطاب العقل المكوَّن، في جدل دائر يبدأ بالتَّنقيب والكشف والبيان، لا لينتهي بالعقد والتَّكوين النِّهائيّ خلاصةً، بل إلى نحو تلقٍّ من قراءة، وقراءة أخرى في التَّرجمة والتَّفسير ومساقات الفكر والتَّأويل، وهكذا في جدل، من قراءة في إشكاليَّة، إلى إشكاليَّة في قراءة، والنَّصّ والتَّأويل والفهم والشَّرح والتَّفسير على أنحاء من ائتلاف أو اختلاف، مقاربة أو مباعدة، في استمرار متواصل.

يمكن القول إنَّ النَّصّ الواصف عبارةٌ عن خطابِ كُلِّيّات معرفيَّة، وفصول توجيهيَّة، تُؤَسِّس لنفسها بلاغة ذاتها في شريعة من مقاصدها الواصفة، يتوزَّع بعدها الإدراكيّ على شكل هرميّ ثلاثيّ التَّكوين، تعمل متفاعلة متكاملة كـ"ميكانيزم"، في محور الإنسان وعوالمه المختلفة، في: ١ـ النَّصّ. ٢. العلم "الإبستيم"، بوصفه معلوماً، وما يتجلّى في الخلفيَّة المعرفيَّة والافتراضات والمرجعيَّات السَّابقة، تلك التي لها دخل فيه تشكيلاً، شرحاً وتوضيحاً وتفسيراً. ٣ـ الذَّات المُدركة/الواصفة، بنحو من أفعال القراءة، وحدود التَّلَقِّي ومساقاته ـ الفهم.

وتبقى القراءة وأفعالها الإنتاجيَّة والكشفيَّة الواصفة على نحوين: وصف لذات، ووصف لمُدْرَك، ولا شكَّ في أنَّ الأخير ـ الموضوع/المعرفة ـ غير الذَّات، وهي بالضَّرورة غير المعرفة، بل المعرفة هي الضَّابط في تحديد المسافات بين ذات وإدراك، ومدى التَّطابق والتَّصديق يكون رهناً، موقوفاً على المِلاك، ناهيك بالقدرة على الفهم والاستيعاب وامتلاك الأدوات وحسن ممارستها، بل مجمع

الخوارزميَّات، وتوظيف المناهج، وتطويع الآليَّات، التي تسقط تطبيقاً على النَّصّ وما يكتنفه. وهل يتوقّف منطق التَّفكير وفعل القراءة؟ إنَّه خروج إذن، من عالم التَّكوين إلى عالم آخر!.

[**الكلمــات المفتاحيَّــة:** الـنَّصّ، الـنَّصّ الواصـف، اللُّغـة الواصـفة، التَّحليـل النَّصِّـيّ، التَّفسـير، القراءة، الفهم، الشّرح، الوظائف].

Descriptor text - lens and disk

An epistemological approach to the alphabet of textual analysis

Asst. Prof. Dr. Emad Jabbar Kadhem Dawood
Wasit University - College of Education for Human Sciences
imadjabbar@uowasit.edu.iq

Summary:

The text is based on multiple philosophical pillars, which are characterized by a fundamentalist, thematic, missionary, at times descriptive, translational, transformative, epistemological universe in others, to be the first, which is the component mind - the level of perceptions, identities, and backgrounds - first and foreground, prefigured and pre-emptive For results from it, that is, from the text; As definitive sayings and the loads of a descriptive text / discourse of the component mind, in an ongoing debate that begins with exploration, disclosure and statement, not to end with the final contract and composition of a summary, but towards a receptivity from a reading, and another reading in translation, interpretation, and courses of exegesis and thought, and so on from reading in a problematic, to problematic In reading, text, exegesis, understanding, explanation and interpretation on parts of a coalition or difference, and approach or distinction.

It can be said that the descriptive text is a discourse of cognitive faculties, and its orientation chapters, the perceptual dimension is distributed in a three-form hierarchy, in: 1- the text, 2- The science, as information, and what is manifested in the cognitive background that has a part in it, an explanation, an explanation and an explanation. 3- The perceived self / prescribing, in terms of reading, and the limits of receiving.

Reading and its productive and revealing actions remain in two ways: a description of the self, and a description of the perceptive, and there is no doubt that the latter - the subject / knowledge - is not the self, and it is necessarily not knowledge, but knowledge is the control in determining the distances between self and perception, and the extent of congruence and validation depends on The owners, not to mention the ability to understand and comprehend and own the tools, but the complex of algorithms, and the use of methods, and adapt the mechanisms.

[**Key words**: text, descriptive text, textual analysis, interpretation, reading, functions].

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الذي خلَق العقل واللِّسان، وعلَّم القراءة والبيان، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا وحبيب قلوبنا محمد سيِّد الأنام، وعلى آله الطَّيِّبين الطّاهرين الكرام.

وبعدُ، في عصرنة من المقاربات تأخذ الأجهزة الذَّكيَّة من الإنسان نصَّه التَّفاعليّ، فلا تدع لنفسها ميزة النَّظر والتَّكوين فحسب، بل تنحو إلى الإنتاج والتَّغيير؛ بطرائق من التَّعامل والسّلوك، ليتناسى الإنسانُ، وهو صاحب الفكرةِ الأمّ، أنَّه يجري في ضوء لغة تحتويها لغاتٌ متداخلةُ الوصف، لا تنفكُّ تتجاذب وتتنافر على سطح نصّ بكيفيَّات معيَّنة، ضربَت من أفق الإرسال شبكة عالميَّة، لتأخذه دوائر من الاعتمال والتَّلَقِّي/القراءة، مرةً على وجه، وأخرى على وجوه فَهْماً وتأويلاً، تبحث عن معنًى ودلالة، وتكشف عن قصد وغاية، والنَّصّ، بين هذا وذاك، متعدِّد في قيمة كُلِّيَّة واحدة، باقٍ في دائرة الرصد والتَّحليل والوصف والتَّفسير، تلك التي تماثل جدليَّة العَدَسة والقُرْص(١*).

إنَّ مَن يقارب بين هذه التِّقْنيات، وما فيها من بصمة التَّعريف الماهويّ ـ أيّاً كانت سماتها وخصائصها ـ يجدها تماثل بصمة العين في الرُّؤية والقراءة والفكر، أو بصمة اليد في الكتابة والقصد والتَّفاعل والبثّ؛ للدخول فيه والعمل على فَهْمه وتفسيره واستيعابه. وتبقى البرمجيَّات وأنساقها مع "الخوارزميَّات"(٢*) هي الأساس، على الرّغم من ظهورها، لكنَّها تبقى خفيَّة، تختفي خلف بنية/سطح ظاهراتيّ، جعل من نفسه تجلِّياً لإبداعها الابتدائيّ، المعرفيّ.

لقد تشخَّصت في النَّصّ معالمُ تُفصح عن قولٍ: ثمَّة عطاءان إذن، دالّ ومدلول، مسند ومسند إليه، موضوع ومحمول، ومعرَّف ومعرِّف، ليس لأحدهما وجه دون الآخر على الرّغم من التَّباين والاختلاف والحقوق، ولا قيمة لأحدهما إلا بتفاعلهما معاً. وهل النَّصّ إلا نسق جدليّ تفاعليّ مثل ذلك!؟.

ولعلَّ الاستفهام لا ينقطع استيعابه بالاستتكار؛ لتأتي الإجابة وتأخذ حقَّها في الرَّدّ على هذه الإشكاليَّة، حين تنهج نحو وصفه الكُلِّيّ؛ لأنَّ النَّصّ، ليس إلا نسقاً تعدُّدياً تموج به عوالم مختلفة من النُّصوص وافتراضات أُخَر، لا على نحو "تناصّ" فحسب، بل على نحو فِكْر يُطرَح بقراءة وتأويل في مجالين، تنتظم فيهما لغة العالم، حضوراً وغياباً، وهما "الائتلاف والاختلاف"؛ لأنَّ النَّصّ موضوع يلاحق ذاته فيه، ثُمَّ يحاول أن يكشف نفسه له، إنَّه عوالم في عالم.

وضع النَّصّ إذن، لنفسه خصائص عطائه في الإنشاء والتَّكوين والغرض والهدف والغاية، والفعل التَّأثيري والإنجازيّ أيضاً، ثُمَّ استدعت هذه الخصائص اقتضاء وصفه وتحليله وتفسيره

وتصنيفه وفهمه واستيعابه، فكانت اتجاهات من مسار اللِّسانيَّات، ونقد إجراءاتها في دائرة ينفعل فيها ما للقلم والطِّرس(٣*) موافقة ومخالفة، اتّخذت من نفسها وسائل منهجيَّة وبيانيَّة؛ لتكون على مساق من أصول، وسلوك من برمجةٍ في توصيف وصف/معيار ومنهج يقع وصلة بين نصٍّ وقارئ، والقراءة فيه ــ أي: في النَّصّ ــ مكمن مرجعيَّات، وحركة إشكاليَّات وتأويلات، مفتاحها، في المبدأ، سؤالٌ من جدليَّة الفكر واللُّغة، في: ما هو؟، وكيفَ؟، ولماذا؟ وعمَّاذا؟، ولأيِّ شيء؟!، اجتراح قراءةٍ، ثُمّ قراءاتٍ أخر، ممثَّلة بدلالةٍ وإنتاجيَّةٍ من النَّصّ الأوَّل ـ الهدف إلى نصوص أُخَر، تؤجِّل قضاءً، وتستأنف حكماً، وتهب حياةً.

ومن هنا سنحت في خاطري المتواضع فكرة المقاربة(٤*) تـه: "النَّصّ الواصف"، كـ"مشروع قراءة ـ محاولة أُولى يسيرة جدّاً"، وتجلَّت أنساقها؛ لكثرة العلوم التي تتناول النَّصّ في لغة مخصوصة بالدِّراسة والبحث والتَّحليل والتَّوجيه والتَّفسير، ولكلّ منها، بالضَّرورة، فلسفة، لها شرعة ومنهاج، وهدف وغاية، صار امتياز موضوع النَّصّ نفسه دالاًّ عليه، أي: على النَّصّ، مشيراً إليه، حتَّى افتراض مفاهيم من علامات الاستفهام بعد الإنجاز النِّهائيّ، ومن قبلُ جدليَّة المبدأ في: أثمَّة جامعٌ بين كلّ، وإذا كان العالم يقوم على لغةٍ في وصف نفسه، لإدراك شيء، ثُمَّ منه إلى آخر يقوم به، وعليه، جوهراً وعرضاً، فما هي لغة العالم الموصوف؟، وهل تحتويه نسقاً، أو هو يشير إليها ابتداءً؛ كي تعود إليه، لتشكلّه وتنتج بناءه من جديد انتهاءً(٥*)؟!؛ لتكون ــ أعني: فكرة الموضوع المزمع ــ مقدِّمةً يسيرة تستند إليها مراحل التَّحليل والتَّركيب والعقد والاقتراح في قراءةٍ بسُنن من أصولها المتجذِّرة، وفروعها المشتعّبة، حاولتُ فيها وصف مقاييسَ ورُؤى، أصوليَّة كُلِّيَّة، تعمل على مواثقة أنفسها بنصّ واصف يقبع خلف كلّ مدوَّنة مفاهيميَّة إبستمولوجيَّة ـ معرفيَّة، في نهج استرسلتُ فيه استرسال الفكرة تلاحقها أُخْريات، ومقاربات مناسبة لنظائرها وحقول أشباهها على "عتبات"/"أطراس" ثلاث، تتلوها مقولات وقراءات، أو وصفيَّات ومناصّات متفرِّعة، وتعدُّديَّة أصوات متصادقة، لتكون الطِّرس الأولى: في فاعليَّات الإجراء نظرٌ في أبجديَّة الخصائص والسِّمات النَّصِّيَّة، ما يتواقف عليها جهاز المفهوم النَّصِّي اقتراباً وابتعاداً. والطِّرس الثانية: في جدل الأنساق والنُّظم الموحّدة ـــ تكامليَّة المختلف، وانسجام المؤتلف، على نحو أنظمة الدَّال والمدلول. والطِّرس الثالثة: التُّراث العربيّ: المفهوم والمصداق، قراءات في أبجديَّة المقدِّمات، ثُمَّ خاتمة تضمَّنت أهمَّ النَّتائج.

وبعدُ، يبقى رحيق الوصف في قراءة ونظر، ليتجلَّى مقاربةً بقوله "عزَّ وجلَّ": ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا

يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ (٦)، كأنَّه(٧*) أوليَّة تصدح بفاعليَّة التَّكوين المعرفيّ، مقاربات "العدسة، والقرص"، حين تتحيَّن سياقيّاً شأنيَّة "المصباح" بمماثلة الكتاب، و"الشَّجرة/الزَّيت" بأفعال القراءة وروحها، وتكامل ثنائيّتها بالمصباح/الكتاب، وموضوعيّتها بنفي الأدلجة: الشَّرقيَّة والغربيَّة، و"النَّور" بالإنتاجيَّة وآفاق التَّلقِّي، ورمزيَّة "الزَّيتونة" بشأنيَّة فهم الذَّات سلاماً واطمئناناً، وسعتها المعرفيَّة وانفتاحها لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٨). إنَّها نظام كُلِّيّ مؤسَّس بوعي في منظومة تكوينيَّة متسنِّنة، متفاعلة في حركة متكاملة، قرينتها الكبرى دواة: بحر وشجر، وكتابة على صحائف الوجود، حكمة بلُغةٍ.

وآخر دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربّ العالمينَ.

الطِّرْس الأولى

في جدليَّة التَّبنين، فاعليَّة الإجراء في تحليل أبجديَّات الخصائص والسِّمات

النَّصّ، من الإشكال التَّعدُّديّ إلى وحدة العقد التَّراكميّ:

إذا كان النَّصّ شيئاً يُذكر، فهل هو بمنزلة "الكينونة"، وإذا كان مفهومها كما يرى "مارتن هيدجر"(٩) هي التَّصوُّر الأعمّ، وأنَّها بذلك تستعصي على كلّ محاولة للتعريف، بل هي غير قابلة للتعريف أيضاً، وليس من حاجة لأن تعرَّف، لأنَّ كلّ امرئ يستعملها، يفهم ماذا يعني به في كلّ مرة، فهل هذا يعني أنَّ كينونة النَّصّ من الخفاء في التَّجلي، ما يجعل التَّفلسف فيه قلقاً، حتَّى أنَّ مَن يسأل عن ذلك مرةً أخرى يُؤاخذ عليه في المنهج؟!، وماذا عن "نصِّيَّة النَّصّ" إذن؟!، وما الذي يمكن أن يُقال عن مبادئها الأصوليَّة وقواعدها التَّأسيسيَّة والتَّحويليَّة حينئذٍ؟!.

لقد انعقدت جمهرة الفكر السِّيميائيّ واللِّسانيّ على ما يكون عليه مفهوم النَّصّ من شأوٍ في كونه "شبكة من العلاقات التي تنتظم فيما بينها استناداً إلى قوانين بنيويَّة خاصَّة يُعدّ التَّعرُّف عليها مطلباً رئيساً لتحديد "المعنى"، أو المعاني التي يحيل إليها،..."(١٠). إنَّه " "كمّ" معنويّ يحتاج إلى وعي يستقبله ويمنحه شكلاً هو أساس وجوده،..."(١١)، بل لعلَّه لا يقف عند حدّ الفهم دون العمل والتَّأثير الذي يتبعه وبحسب ما يستند إليه من مستوى إدراكيّ تداوليّ.

وإذا نزعنا من النَّصّ قيمة الامتياز الخاصّ إلى التَّصوُّر السِّيميائيّ العامّ(١٢*) وسياق الأفعال، فربَّما لا نقف أيضاً على علامة فحسب، بل يكون ماثلاً في كلّ مفصل من مفاصل التَّشكيل

الإنسانيّ، دلالةً ونتاجاً، وإبداعاً، فمِن لوحة الرَّسَّام مثلاً، وما عليه من احتراف واحترامٍ وتقدير لأدواته، فضلاً عن معرفته وممارسته في قنص الخيال وفي كيفيَّة إملاء بياض أوراقه وفراغاتها بالألوان وزخرفتها الإبداعيَّة، إلى ما في القراءة بما تعكسه من روح ممثَّلة في استنباط المعاني والدَّلالات، ثُمَّ التَّكوين والتَّأليف.

ومِن عازف على آلةٍ موسيقيَّة: أ وَتَرِيَّة كانت أم هوائيَّة، بما له مِن موهبةٍ وقدرة على ملء الفارغات بالأنغام والألحان والتَّنظيم، إلى ما في فعل القراءة واستيعاب القارئ مقاربةً، فكلّ نصٍّ، في ظنِّي المتواضع، بمنزلة آلة موسيقيَّة، فكما أنَّ الآلة لها هندستها التَّكوينيَّة والنَّغميَّة، وامتلاكها الفعليّ الذي لا يعني حيازتها فحسب، بل القدرة على إجراء وظيفتها في العزف، إذ شتان ما بين امتلاك بلا قدرةٍ: امتلاك كتابٍ بلا معرفةٍ بأبجديَّة قراءة، وقدرة على امتلاك، وإلا ستبقى الآلة [النَّصّ] معطّلة إلى أن تتعيَّن وظائفها بالعزف!، فكذلك النُّصوص، لها طرائقها في التَّرميز والتَّنظيم والتَّخطيط والبثّ التي لا يحلّها إلا مَن له القدرة على الفَهْم والشَّرح ـ قراءة.

ولعلَّ هذا النَّسيج التَّراكميّ ومقارباته التي لا تنتهي مماثلة ومشابهة بسيميائيَّات الممكنات وأصناف الموجودات، هو الذي قاد "رولان بارت"، إلى قول: "إنَّ النَّصّ ليس سطراً من الكلمات، ينتج عنه معنى أحادي، أو ينتج عنه معنى لاهوتي... ولكنَّه فضاء لأبعاد متعدِّدة، تتزاوج فيها كتابات مختلفة وتتنازع، دون أن يكون أيّ منها أصليّاً: فالنَّصّ نسيج لأقوال ناتجة عن ألف بؤرة من بؤر الثَّقافة"(١٣).

ولهذا قرَّر، أعني: "رولان بارت،" في ابتداء منهجٍ لسياقٍ تتعارض فيه الاتجاهات؛ لغرض وقصدٍ هو ما يتجّه إليه النَّصّ نفسه، وهو مكمن الالتقاء، وعنى به "القارئ"، مقابلةً بـ"الكاتب" الذي صار في تصوُّره فضاء النَّصّ نفسه ومحور انطلاقاته، قائلاً: "النَّصّ مصنوع من كتابات مضاعفة. وهو نتيجة لثقافات متعدِّدة، تدخل كلُّها بعضها مع بعض في حوارٍ، ومحاكاة ساخرة، وتعارض. ولكن ثمَّة مكان تجتمع فيه هذه التَّعدُّديَّة. وهذا المكان، ليس الكاتب،... إنَّه القارئ. فالكاتب هو الفضاء نفسه، وفيه تكتب كلّ الاستشهادات نفسها دون أن يضيع شيء منها. فالكتابة مصنوعة منها، وإنَّ وحدة النَّصّ ليست في أصله، ولكنَّها في القصد الذي يتّجه إليه،..."(١٤).

وكم من مقاربةٍ بين هذا القصد الذي يسعى إليه النَّصّ بذاته، وفعل القراءة: إدراكها ومستوياتها، من إجراءات وسيرورات!. قد تبدو منزلة وحدة النَّصّ في القصد/المعنى هذا، من الإشكاليَّةً ما تُبقي النَّصّ نفسه في دائرة القراءة المفتوحة وتعدُّدها اللانهائيّ؛ وذلك لأنَّ "تعدُّد المعاني الملازمة للنصوص [كما يقول "بول ريكور"] باعتبارها نصوصاً شيئاً آخر غير تعدُّد دلالات الكلمات

المفردة وغموض الجمل الفرديَّة في الكلام العادي، وتعدُّد المعاني هذا نموذج خاصّ بالنَّصّ المنظور إليه ككُلّيَّة؛ فهو (أي: التَّعدُّد) يفتح تعدُّد القراءة والبناء"[١٥]، ومَن يدَّعي "امتلاك النَّصّ" بعد التَّسليم بالاستقلال القصديّ النَّصِّيّ!؟ إلا على سبيل من قراءة، والاعتراف باحتمال خطئها، وإمكان صحّة سواها.

ومن هنا ينفتح النَّصّ على قراءات متعدِّدة بحسب النَّظر والفهم[١٦*]، وهذا الانفتاح هو الجدليّ للاستقلال الدَّلاليّ للنصّ، والسَّبب ــ كما يرى "ريكور" ــ هو ما في التَّنازع بين الحقوق وتداخلها، إذ يتداخل حقّ القارئ بحقّ النَّصّ في نزاع يولِّد حركة التَّأويل برمَّتها، إذ يبدأ التَّأويل حيث ينتهي الحوار/المحادثة[١٧].

لذا شاعت في خطاب الدَّرس اللِّسانيّ[١٨] **ثقافةُ التَّحليل النَّصِّيّ: فهماً وتفسيراً وتأويلاً واشتغالاً**، كسمة عليا على مفهومه التَّأسيسيّ، سواء الإنشائيّ التَّكويني البنائيّ منه أم الغائيّ الوظيفيّ التَّواصليّ؛ لتعدُّديَّة أشكاله وأجناسه، فكانت فكرة "الوصف النَّصِّيّ" قاضيةً **بأمرين جدليين**، كلّ منهما يشكِّل محوريَّةً جامعة لقراءات نظريَّة وتطبيقات ينتظم بها جهازها الوصفيّ معرفيّاً.

أمَّا الأمر الأوَّل منهما، ففي إبعاد النَّصّ عن ساحة الحدّ والتَّعريف؛ لإشكاليَّاته المفاهيميَّة وتعدُّد الأجهزة المعرفيَّة التي يستقي منها ويندرج هو بضمنها، ثُمَّ كيفيَّاته وأشكاله التي يتمظهر هو بها، والقول: لا يمكن حدُّ النَّصّ، ولا يمكن حسمه، بل يمكن تعيين سماته وخصائصه، تلك المميزات التي يمتلكها، وهي بالضَّرورة تُعبِّر عنه، وتُعِين على وصفه وتصنيفه، فالنَّصّ إذن، في هذا التَّصوُّر حرٌّ طليق في مفهومه، متّسع في ملاكاته وموائزه، ناهيك بدلالاته التي يمكن أن تُعاد بالقراءات بناءات متكثِّرة، متعدِّدة التّوصيف والنَّظر. وأمَّا **الأمر الثاني**: ففي الدَّعوة إلى تقريب مفهومه الكُلِّيّ وتأطيره، على الرّغم من إشكاليَّاته بحسب المناهج المتبعة والقراءات الهادفة ومقاصدها التي شرَّعت ابتدءات أصولها، ورُبَّما التَّضايف فيما بينها؛ لأنَّه أصل النَّظريَّة ومحلُّها، بل محور فلسفتها قفلاً ومفتاحاً، ولا نظريَّة بلا موضوعٍ تقوم عليه وتشتغل فيه بداهةً، دع عنك تسميتها **نظريَّة!**.

ولهذا خلُص "زتسيسلاف" بعد قراءة ما قدَّمه من تعريفات كثيرة ومختلفة للنصّ، إلى النَّتائج الآتية[١٩]: ١ـ تعبيرها (يعني: جملة التَّعريفات التي للنصّ) عن جوانب جزئيَّة متباينة للظاهرة الشَّاملة للنَّصّ. ٢. خصائصها إمَّا متعلِّقة بتركيب النَّصّ، وإمَّا بدلالة النَّصّ، وإمَّا ببراجماتيَّة النَّصّ، وإمَّا مجسَّدة لجوانب مختلفة.

ثُمَّ قال: "تأكّد ــ في ضوء محاولات التَّعريف التي أُوردت هنا ــ أنَّ نحو النَّصّ، ودلالة النَّصّ، وبراجماتيَّة النَّصّ، تُعدّ فروعاً لعلم نصّ لغويّ"[٢٠]، ذلك العلم الذي تجاوز محوريَّة الجملة إلى أساسيَّة النَّصّ، بوصفه المحور الرئيس في التَّحليل اللُّغويّ[٢١].

وختم إجراءه الاستدلاليّ، قائلاً: "ونريد في الختام أن نؤكّد مرةً أخرى على أنَّه بالنِّسبة "للنصّ" بوصفه هدفاً بدهياً للتحليل، وموضوع بناء النَّظريَّة، رُبَّما لا يوجد إلى الآن تعريف تامّ مطلقاً، أعني: تعريفاً قاطعاً. وعلى الرغم من ذلك نريد هنا أن نخاطر بتعريف موجز يُجمل نتائج هذا المبحث. نفهم تحت "نص" مكوّناً لغويّاً أفقيّاً، نهائيّاً، مقصوداً به التَّطابق لواقعة التَّواصل المختصَّة، يصير من خلال الدَّمج الإنجازيّ وأوجه التَّناظر الدَّلاليَّة ــ الموضوعيَّة والتَّرابطات النَّحويَّة تتابعاً متماسكاً من الجمل"[٢٢].

وهل تبقى نحويّات المجازفة هذه وسواها في التَّحديد عبارة عن صدًى تجري على جوانبه ممارساتُ التَّحليل والتَّنقيب عن دواخل النَّصّ وخوارجه، أو فاعليّاته وإنتاجه واستيعابه وتفسيره؟.

لقد سعت هذه المدارسات الثُّلاثيَّة التَّوصيف: النَّحويَّة والدَّلاليَّة والبراجماتيَّة، بموضوعاتها المتعدِّدة وفروعها المتشعّبة إلى تكوين نصّ لها في ضوء تعريفها النَّصّ نفسه، فصارت بذلك سلطة عليه، وحاكمة له، وهو، في وصف متضاد، أسير لها مرةً، وسيّدٌ فيها، عليها، مرةً أخرى، تأخذ منه مساحةً معرفيَّة للوصف والشَّرح والتَّعليق والمقارنة والنَّقد، تحت مفاهيم من وسيمات المنهج والإجراء والاتصال في نظريَّة (علم/لغة/لسان/نحو/ = النَّصّ/الخطاب)، وهي مداخل ما زالت تتوارد عليها عمليّات التَّلَقِّيّ، وتقف منها حفريات وقراءات على عتبات من إيجابٍ وسلبٍ، وكلٌّ والمرجعيّات الساندة، والأصول الداعمة؛ لتأخذ من رحيق النَّصّ نفسه، وبأيّ مستوى كان عليه من التَّجلِّي، وهو بدوره ينتظر، بدليل تجذروه فيها، وحيادته عنها، بل رُبَّما نفوره منها أحياناً عندما يتأبَّى على التَّحديد والتَّأطير، شارعاً لنفسه نظريَّة كُلِّيَّة تقوم على نحويّات من الاختلاف والتَّماثل، تمظهرت محاورها بثلاثة مجالاتٍ، هي[٢٣]:

١ـ علم النَّصّ النَّظريّ (**نظريــة الــنَّصّ**)، وهو علم الموضوع العام للنصّ، علم بناء النَّصّ (تشكيل النَّصّ) إلخ. ٢ـ علم النَّصّ الوصفيّ (**تحليل النَّصّ**)؛ بوصفه علماً عمليّاً لتحليل النُّصوص وتصنيفها، أي علم أنواع النُّصوص (تنميط النُّصوص). ٣ـ علم النَّصّ التَّطبيقي، وهو علم استعمال النُّصوص، واستيعابها، وتعليمها.

أقول: على الرّغم ممَّا بدأت به هذه المداخل الإجرائيَّة في نحو النَّظر والممارسة؛ لتأسيس مفهوم النَّصّ، يبقى النَّصّ بين الأخذ والتَّرك في مقولات التَّعيين أو عدمه؛ لمجالات التَّحليلِ المتعدِّدة

ومناهج الوصفِ المتنوّعة، يبقى دائرةَ احتدامٍ للنظر، وفضاءً للقراءة، وصراعاً للتأويل، في توصيفِ شفرة، أو رمز، أو إشارة من لغةٍ لدالٍّ على مدلول، ومعنى وقصد، أو تكوين ونظام؛ للكفاية التَّواصليَّة والإبلاغيَّة الإعلاميَّة، هدفاً أوليّاً، مع عدم الاستغناء عن سواها من الوظائف والأهداف الأُخَر.

وهل من سبيلٍ لحصر خطاب مقولات الفكر في نظامٍ دلاليّ واحدٍ(٢٤*)، ذي مركزيَّة تُفرِّع نفسها على هوامش جدليَّة، يكون برهاناً على ما صدق، تجبره كلمة سواء، وتتّفق عليها ألسنة التّأويل ومضارباته!؟.

لعلَّ التَّفكير اللِّسانيّ، لا يترك إجابةً تأخذ بطرف من نسقٍ، وتتعلَّق بإذيال من مبدأ...، إذ لا مهربَ من إيجاد نفسه في نصّ واصف، في منهجٍ ونظام من مكوِّناتٍ تُمظهر معطياته، أداته فيها اللُّغة الواصفة، تلك التي تكوِّن له، بعد تأسيسه هو لها، مشروعيَّة قراءة، وفاعليَّة إجراء، يجسّدها إدراك سباق وفهم.

النَّصّ الواصف قراءات في النَّظر والمنهج والممارسة:

. إشكاليّات الدَّال المفاهيميّ ــ في البدء كانَ النَّصّ، ثُمَّ السُّؤال والوصف:

حين يتألَّف النَّصّ بحساب مكوِّناته التَّوليفيَّة الاستبداليَّة والخطِّيَّة: سُننه ومواضعاته البنيويَّة والدَّلاليَّة والتَّداوليَّة الاستعماليَّة، التي يتجلَّى بها نتاجاً وظهوراً في ساحة الإرسال(٢٥*)/التَّلقِّي ــ القراءة، فإنَّه يمثِّل، جدلاً، ذاته بأبعاد، تلك التي تُعلن عنه، بوصفه "انسكلوبيديا"، "دائرة معارف"، منظَّمة بإحكام من عقدٍ، واتفاق من نقد، فيها من كلّ شيءٍ طرفٌ وسبب.

وإذا كان النَّصّ كذلك يعتمل في تأسيس ذاته بنهج مبرمج، تتضافر فيه مؤسّساته، التي تبدو لي من توصيفه "دائرة معارف" متكاملة، منفتحةً على آفاق معرفيَّة واسعة، فكيف يمكن أن يصف ذاته، إذا أراد لها التَّقنين: التَّمييز والتَّعيين والإظهار؟، أو كيفَ يسعى إليها في بيانٍ قيميّ معرفيّ، بالضَّبط والتَّعميم والمقبوليَّة؟. وكيف يمكنه أن يرسل نفسه خارجها؟.

أثمَّة ما ينسحب منه، عليه، في استراتيجيَّة وصفٍ خاصّ منه، داخليّ، أو خارجيّ، أو تفاعليّ تضافريّ تكامليّ، فيكون سنداً تتكئ عليه أنظمته ومرجعيّاته؟، أو تكون له من الأصول والآليّات ما تهيكل به نظام نصٍّ واصفٍ للنصّ نفسه، بعد تكوين بنائهِ، وتشييد أبوابه وعتباته، تكون ــ أعني: تلك الأصول والآليَّات الممنهجة بالنَّظر ــ مستنبطة منه، مأخوذة من مستَّناته، مترشِّحة من مكوِّناته، لها من الإجراء سلطةٌ، وظيفتُها أن تُتقِنَ إحكام مجاله وضبط قواعده، وتعمل على تحليله وشرحه وتفسيره في لغة خاصَّة، ورُبَّما امتثال ما يعنيه ويقصده موضوعه؟، أي: ما قبل التَّكوين في التَّفكير به

وهندسته وخرائطـه التـي يتجلَّـى بهـا بنـاء النَّصّ، إلـى مـا بعده فـي الفهم والتَّفسير، ثُمَّ الفعل، والتَّأثير، والتَّداول؟.

وهل يقوم النَّصّ على ثقافة نصوصه التي تُشكِّله؛ بحسابه العقل الجامع لتلك الأنظمة/العقول، أو هو الذي ينشئ منها ثقافة نصّ واصفٍ لها؟. أ يكنزُ النَّصّ من الموسوعات ما تجري هي فيه؛ بوصفها مفاتيح واصفةً؛ للدخول إلى خزائنه، وكشف ما فيها من أسرار ونظم معرفيَّة، وأبنية ثقافيَّة؟. وعلى أيّ نحو من الممكن أن تسري عليه قراءة النَّصّ؛ عمقاً وسعةً واطلاعاً، لكي يتجلَّى منها نصّ إبداعيّ تشرئب له أعناق نصّ ـ قراءة ـ واصف؟.

هل يمتدّ النَّصّ إلى مقولات النَّصّ الواصف، بتعيين من التَّمثيل والمحاكاة، أو يصل النَّصّ الواصف إلى النَّصّ بالإدراك والكشف والبيان والتَّفسير، حتَّى يبدو الأوَّل منهما ـ أي: النَّصّ الواصف ـ كاشفاً عن نفسه وعن خلفيّات غيره؟، وما العلاقة التي تكون بينهما، أ هي من ثنائيَّة الحضور والغياب/التَّجلِّي والخفاء: النَّصّ والنَّصّ الواصف، أم من قبيل علاقة الأفكار والأسلوب، أم من علاقة التَّابع والمتبوع، أم الدَّال والمدلول، أم المتن والشَّرح، أم الأصل والفرع، أم المركز والهامش، أم الظَّاهر والباطن، أم المفهوم والماصدق، أم النَّظر والتَّطبيق ـ الفكر والعمل، أم المفهوم والإجراء، أم النَّصّ/الكتابة والقراءة، أم أنَّهما واحد في تجليّات متعدِّدة واسعة الآفاق والوسمات، وكلّ إلى ذلك العنوان تشير؟!.

وبعبارة أبجديَّة أُخرى: ما مفهوم النَّصّ الواصف(٢٦*)؟، وما الَّذي تعنيه سيمياء الاقتران الوصفيّ هذه، حين ينعكس وصفٌ من النَّصّ، عليه، منبثق منه، متوالد عنه، على نحو من الافتراض أو التَّأسيس، سواء أ كان لاحقاً له أم سابقاً عليه، داخليّاً أم خارجيَّاً، محوريّاً أم فرعيّاً، فيكون صفةً له في قراءة وصفٍ من وعي فاعل؟.

لم تكن الدِّراسات اللِّسانيَّة والنَّقديَّة وفلسفاتها الحديثة لتقف عند حدود هذه التَّساؤلات(٢٧*)، وما فيها من الإشكاليَّات من غير أن تقدِّم معالجات أو تصوُّر مواقف حين وجدت هذا التَّكوين الجدليّ: "**النَّصّ الواصف**" يلج عباب التَّفكير اللِّسانيّ، ويشرِّع من نفسه مقولات وقضايا ومسائل، ويحيط بأنساق المعرفة، يفرض نفسه سلطةً عليها، ليس في التَّوصيف المعرفيّ فحسب، بل في إصدار الأحكام وتحديد القيم وتحديثها وتجديدها أو نقدها أيضاً؛ ولذلك اجترحت تلك الدِّراسات جملة من قراءاتٍ ونظرات تكشف فيها عن تعيينٍ مفاهيميّ لمصطلحيَّة "النَّصّ الواصف" وإجراءاته، تتشظَّت على عنونة، وفي رُؤى خاصَّة، وأُخَر عامَّة.

ولأنَّ هذه الرُّؤى كذلك من الإدراك المتعيَّن، يسوغ لنا بعد بيانها وإيضاحها أن نعمل على توحيدها في قراءة اندماجيَّة تكامليَّة أخرى بحساب التَّضايف المعرفيّ[٢٨*] لاحقاً، هذا إذا ما تركنا نيَّة الانفصال وخصوصيَّة المعلوم بالموضوع والمنهج والغرض والغاية؛ بدعوةٍ من الاتّصال مع عدم إغفال سمة التَّمايز المعرفيّ بداهةً، ولاسيَّما إذا كانت المتخيَّلات المعرفيَّة، صادرة من مركزيَّة النَّصّ نفسه؛ بوصفه المرآةَ العاكسةَ لصورة العالم، المشكِّلة له في عوالم، كذرة في صغرٍ، أو سماء في كبر.

الوصف الأوَّل: ـ مقولات "المتعالي النَّصِّيّ":

يقدِّم الدَّرس النَّقديّ الحديث توصيفاً عامّاً لمفهوم "النَّصّ الواصف"، ـ وقد يُسمِّيه بعض الدَّارسين تسمّيات عديدة أيضاً، وسنأتي عليها لاحقاً، منها: "النَّصّ الموازي"[٢٩]، أو "الميتانصّ"، أو "الماوراء نصِّيَّة La Transtextualité" ـ أو "التَّظير النَّصِّيّ"، أو "النَّصّ المحيط"، و"النَّصّ الفوقي"، و"المصاحبات النَّصِّيَّة". ـ باحتسابه، أعني: مفهوم النَّصّ الواصف" إحدى مصطلحات "المتعاليات النَّصِّيَّة" الخمس المرتبة بشكل تصاعديّ بحسب "جيرار جينيت"، وفي وجهٍ/مصطلح آخر بصفة: "عتبات"، أو "المناصات"[٣٠]، وهي مصطلحات مفاهيميَّة لا تقتصر على نحو تجريدها الموضوعيّ، بل تسعى إلى نحو من الإجراءات ووعي الاشتغال بقراءة العلاقات بين النُّصوص، في مقولة تترشَّح منها تفرُّعاتها النَّصِّيَّة، في: "كلّ ما يجعله [أي يعجل النَّصّ] في علاقة خفيَّة أو جليَّة مع غيره من النُّصوص"[٣١]. أو بعبارة أخرى "التَّداخل النَّصِّيّ"[٣٢]. يقول "جيرار جينيت": "التَّعالي النَّصِّيّ للنصّ La Transcendance Textuelle du Texte" الذي أعرفه... وبطريقة مجملة، بـ: "كلّ ما يجعله في علاقة ظاهرة، أو ضمنيَّة مع نصوص أخرى"؛ فهو يتجاوز [النَّصّ]، إذن، ويشمل "جامع النَّصّ"[٣٣].

وهذه "المتعاليات النَّصِّيَّة"، أو العلاقات بين النُّصوص، كما يصوُّرها "جرار جينيت"، هي[٣٤]:

أوَّلاً: "**التَّناص**"، ويتمثَّل "بعلاقة حضور متزامن بين نصّين أو عدّة نصوص. بمعنى، عن طريق الاستحضار Eidétiquement، وفي غالب الأحيان بالحضور الفعليّ لنصّ داخل آخر؛ بشكلها الأكثر جلاء وحرفية، وهي الطّريقة المتبعة قديماً في الاستشهاد Citation (بين مزدوجتين، بالتَّوثيق، أو دون توثيق معين)..."[٣٥].

ثانياً: "**النَّصّ الموازي**": وهو "مكوَّن من العلاقة الأقلّ وضوحاً، بصفة عامَّة، والأكثر بعداً عن المجموع الذي يشكِّله العمل الأدبيّ؛ ويرتبط النَّصّ بهذا المعنى بما أُسمّيه [والكلام لـ"جيرار جينيت"]: **نصّـــه المـــوازي** Paratexte، ويمثِّـه: (العنوان، العنوان الفرعيّ، العنوان الدَّاخليّ، الديباجات،

التَّذييلات، التَّنبيهات، التَّصدير، الحواشي الجانبيَّة، الحواشي السُّفليَّة، الهوامش المذيلة للعمل، العبارة التَّوجيهيَّة، الزخرفة، الأشرطة (تزيين يتخذ شكل حزام) الرسوم، نوع الغلاف، وأنواع أخرى من إشارات الملاحق، والمخطوطات الذاتيَّة والغيريَّة، التي تزوّد النَّصّ بحواشٍ مختلفة، وأحياناً بشرح رسميّ وغير رسميّ؛ بحيث إنَّ القارئ الحصيف والأقلّ اضطراراً للتنقيب خارج النَّصّ، لا يستطيع دائماً التَّصرُّف بالسهولة التي يتوخّاها..."[٣٦].

ثالثاً: "**النَّصّ الواصف**" يقول: "جيرار جينيت": "النَّوع الثَّالث من التَّعالي النَّصّيّ (Transcendance Textuelle) الذي أسمِّيه "النَّصِّيَّة الواصفة Métatextualité" هو بكلّ بساطة **علاقة التَّفسير والتَّعليق التي تربط نصّاً بآخر يتحدَّث عنه**، دون الاستشهاد به أو استدعائه، بل يمكن أن يصل الأمر إلى حدّ عدم ذكره؛... وهي علاقة نقد متقنّنة..."[٣٧].

رابعاً: **النَّصّ المتفرِّع**، أو "النَّصِّيَّة المتفرِّعة Hupertextualité"، ولقد تحدَّث "جينيت" عن هذا المفهوم بوعي أكثر حتَّى أنَّه أرجأه، ذاكراً له بعد النوع الخامس؛ وذلك لما في خصائصه من التَّداخل والتَّحويل، يقول: "وأقصد بهذا كلّ علاقة تجمع نصّاً (ب) ــ الذي سأسمِّيه نصّاً متفرِّعاً ــ بنصّ سابق (أ) سأسمِّيه "نصّاً أصلاً Hypotexte"؛ يلقح منه بطريقة مغايرة لتلك التي نجدها في التَّفسير، يلقح منه كما في الاستعارة... ومن أجل النَّظر إليه من زاوية أخرى، فلنضع مفهوماً عاماً لـ(النَّص في الدَّرجة الثانية Texte au Second Degré" (أتخلى هنا عن البحث، من أجل استعمال عابر، عن أداة أوليَّة تجمع، في وقت واحد، بين "التفرُّع Hyper والوصف Méta")، أو [لنضع هذا المفهوم] لنّص مشتقّ من آخر سابق في الوجود. هذا المشتقّ من الممكن أن يكون منتمياً للمنظومة الوصفيَّة والثَّقافيَّة حيث يوجد نصّ واصف: (نقول مثلا إنَّ الصَّفحة الفلانية من كتاب "أرسطو" تتحدّث عن نصّ "أوديب ملكا")..."[٣٨].

خامساً: "هو "**النَّصِّيَّة الجامعة** l'Architextualité" وهي الأكثر غموضاً وخفاءً، كما يقول "جينيت": "ويتعلَّق الأمر هنا بعلاقة بكماء تماماً بحيث لا تتقاطع ـ على الأكثر ــ إلا مع إشارة واحدة من إشارات النَّصّ الموازي التي لها طابع صنافي خالص، مثل: العنوان البارز كما في "أشعار"، "دراسة"، "رواية الوردة"... أو، في أغلب الأحيان، مع عنوان صغير كالإشارة إلى أنَّ الكتاب رواية أو قصة أو قصائد... التي تصاحب العنوان في أسفل الغلاف. وكون هذه العلاقة بكماء، راجع رُبَّما، إلى رفضها إظهار أيّ وضوح، أو على العكس؛ لأنَّها تتجنب وتدفع كلّ انتماء. وفي كلّ الحالات فإنَّ النَّصّ في حدّ ذاته، ليس من المفروض فيه أن يُعرَف، ومن ثَمَّ، أن يُعلن عن نوعه الخاصّ؛ فالرواية لا تحدِّد ذاتها بوضوح على أنَّها رواية، ولا القصيدة على أنَّها قصيدة، بل، ولرُبَّما، وبطريقة أكثر

حصراً (لأنَّ النَّوع ليس سوى مظهر لجامع النَّصّ) فإنَّ البيت الشعري ذاته لا يعيّن نفسه على أنَّه بيت شعريّ، ولا النَّثر على أنَّه نثر، ولا الحكي على أنَّه حكي... في النِّهاية؛ فإنَّ تحديد قانون أو معيار النَّوعيَّة لنصّ ما ليس من شأن النَّصّ، وإنَّما من شأن القارئ، من شأن النَّقد والجمهور؛ فهذه العناصر وحدها هي من يستطيع، وبجدارة، الطعن في القانون المزعوم للتوازي النَّصّيّ؛..."(٣٩).

تنتمي فاهميَّة "النَّصّ الواصف" إذن إلى مؤسّسة "التَّعالي النَّصّي"/العلاقات النَّصِّيَّة، ولعلّي ألمح من قول "جينيت" السَّابق: "**علاقة التَّفسير والتَّعليق التي تربط نصّاً بآخر يتحدَّث عنه**". مقولة كُلِّيَّة تنتهي إليها كلّ مفاصل التَّوصيف المفاهيميّ الذي أقامه "جينيت" لهذه المصفوفات المصطلحيَّة، فهي، وإن اختلفت في جهة معيَّنة إلا أنَّها تنتمي إلى منظومة وصف، يلبِّي دعواتها النَّصّ الواصف/النَّصّ المشتقّ، حتَّى أجد من توصيفه لهذه المصطلحات قائمة جامعة تقع تحت نصّه الواصف نفسه، ولعلَّ هذا ما يفترضه قوله في فاهميَّة "النَّصّ الجامع"، قال: "وأخيراً أضع ضمن "التَّعالي النَّصِّيّ" علاقة التَّداخل التي تقرن تداخل الأجناس وتحديداتها التي تعرضنا لها، وهي المتعلِّقة بالموضوع والصِّيغة والشَّكل وغيرها. ولنصطلح على المجموع، حسبما يحتمه الموقف، "جامع النَّصّ"، و"الجامع النَّصِّيّ"، أو "جامع النَّسج" "(٤٠).

أقول: تبقى العلاقات النَّصِّيَّة محوريَّة ليس بين النُّصوص فحسب، بل بفاعليَّة القراءة الواصفة أيضاً، تلك الفاعليَّة التي تمتلك الإنتاج الوصفيّ وأدواته النافذة؛ لاكتشاف الأثر الإبداعيّ في النَّصّ، على مختلف أنواعه وتجنيسه، ومنه يمكن أن نفهم ما يراه "جرار جنيت" من فكرة الموازنة بين "التَّداخل النَّصِّيّ"، بوصفه الوجود اللُّغويّ المضمن في نصّ آخر من جهة، ومصطلح "ما فوق النَّصِّيَّة"، الذي يفرض نفسه قياساً ومعياراً، على الزوج التَّقابليّ: **اللُّغة/واللُّغة الواصفة** من جهة أخرى، حين قال: "**علاقة الوصف النَّصِّيّ التي تقرن التَّحليل بالنَّصّ المحلَّل**". وأنَّ النُّقَّاد قد أنتجوا "منذ قرون "نصّاً واصفاً" دون علم منهم بذلك"(٤١).

وأمَّا المعرفة بذلك مقاربةً، فكان من نتائجها ما يُضاف إلى ذلك من: "**النَّصّ التّأليفيّ**"، الذي يدخل تحت وصف مفاهيم "**المناص**"، كما تقدَّم بنا من مفاهيم الوصف، الذي يعني: "كلّ ما يجعل من النَّصّ كتاباً يقترح نفسه على قرائه أو بصفة عامة على جمهوره، فهو أكثر من جدار متماسكة، نقصد به هنا تلك العتبة... البهو الذي يسمح لكلّ منا دخوله أو الرجوع منه..."(٤٢). ولينقسم على أقسام منها: "**النَّصّ المحيط**"، و"**النَّصّ الفوقي**"(٤٣)، ومن النَّصّ المحيط بعض أقسامه، ومنها: **الحواشي والهوامش والتَّعليقات**، وهي بحسب "جينيت": "ملفوظ متغيّر الطّول مرتبط بجزء منتهي تقريباً من النَّصّ، إمَّا أن يأتي مقابلاً له، وإمَّا أن يأتي في المرجع"(٤٤)، فهذه المناصات لها من

الأهمِّيَّة ما أن تكون "إضافة تقدَّم للنص قصد تفسيره، أو توضيحه، أو التَّعليق عليه بتزويده بمرجع يرجع إليه،..."[٤٥].

وأمَّا وظائفها الأساسيَّة، فهي بحسب ما وُضِعَت له، أ أصليَّة كانت أم لاحقة، أم متأخّرة، تعمل على الشَّرح والتَّفسير، والتَّعليق، فالأصلية مثلاً، مهمّتها التَّفسير والتَّوضيح بالمصطلح الموجود في النَّصّ، وأمَّا الحواشي والهوامش اللاحقة، فتتخذ من الوظيفة التَّعليقيَّة سبيلاً لها لفهم النَّصّ، أمَّا الحواشي والهوامش المتأخّرة فتعتمد على الوظيفة الإخباريَّة التي تقدّم معلومات ببيوغرافيَّة وتجنيسيَّة للنصّ[٤٦].

ما زلنا إذن، في رحاب القراءة الواصفة ومعناها الذي يوافق منها مفهوم "القراءة التَّعليقيَّة"، أو "القراءة الشَّارحة"، تلك التي تعطي للمعنى النَّصِّيّ حصانة يرتفع بها فوق الكلمات على الرّغم من وقوفها على ظاهره السَّطحيّ[٤٧]، وهي إحدى أهمّ وظائف "النَّصّ الواصف".

الوصف الثاني: ـ مقولات "التَّحليل النَّصِّي"/البناء والتَّكوين العقليّ:

إذا كان الدَّرس النَّقديّ كذلك في توصيف "الميتانصّ"، أو "ما فوق النَّصِّيَّة" حتَّى يبدو من توصيفه أنَّه يضمر فيه خلفيَّة ومرجعيَّة لكلّ "المتعاليات النَّصِّيَّة"، بوصفها المظهر الكُلِّيّ الذي تندرج تحته الأنواع؛ وبسبب ما ينعقد فيه من اتفاق لكلّ قيمه المعرفيَّة، إذا كان الأمر كذلك، فإنَّ الدَّرس اللِّسانيّ يصدِّر توصيفه لمفهول النَّصّ الواصف، على منهجين: الأوَّل: كُلِّيّ، وهو ما سنشرع في ابتدائه، والثاني، إجرائيّ قائم على حمولة وصفٍ على أنحاء نصِّيَّة مختلفة مؤتلفة، وهو ما سنرجئ الحديث عنه في الطِّرس الثانية؛ وذلك لعمومه وتشعُّب مقولاته.

أمَّا المنهج الأوَّل الكُلِّيّ، فهو ما يتمظهر بمقولة "التَّحليل النَّصِّيّ"، على نحو علميّ يتأسّس على قواعد وشروط، لِيبدو بها عبارة عن قراءة بفعل إجرائيّ وممارسة وصفيَّة تُقدَّم للنّصّ، لا تقترب من القراءة الشّارحة[٤٨*]، أو التَّعليقيَّة فحسب، بل تتجاوزها إلى نحو الإنتاجيَّة والنَّقديَّة والتَّشريحيَّة في "**بناء عقليّ**" منسوب من "**ذات محلِّلة**" كاشفة إلى النَّصَّ والسِّياق: موضوع التَّحليل.

وهنا أجد "فان دايك" صريحاً في هذا المعنى، إذ يقول: "يُعدّ **التَّحليل** (النَّصِّيّ، أو السِّياقيّ) **إنتاجاً** ـ وهذا يعني إذن أنَّه يُعدّ في ذاته **نصّاً ـ لذات محلِّلة**: إنَّ هذا التَّحليل ليس نتيجة للميزات الموضوعيَّة الملاحظة للنصّ وللسياق... فقط، ولكنَّها أيضاً وخصوصاً "**بناء**" **(عقليّ)** للميزات تنسبها **الذَّات المحلِّلة**، بشكل تفاعليّ، إلى النَّصّ، أو إلى السِّياق،..."[٤٩]. ثُمَّ يقول: "يُعدّ **التَّحليل**،

كما قلنا ذلك من قبل، **نصّاً**، أو أيضاً ما نسمِّيه **النَّصّ ــ الواصف**، وهو الذي يجب أن يولد في النَّتيجة، وأن يفهم في لسان معيَّن وسياق تواصليّ معيَّن"(٥٠).

ولم يطب نفساً بذلك النَّحو الإجرائيّ العام، بل عمل على اقتراح معاييره و**ضوابطه** أيضاً، قائلاً: "من واجب التَّحليل العلميّ أن يلبِّي ضوابط التَّواصل العلميّ ومعاييره، وإنَّ أمراً كهذا ليستلزم، من بين أشياء أخرى، أن يكون التَّحليل قابلاً [١] ـ **للفهم**، وأن يكون في مقدوره [٢] ـ أن **يعيد إنتاج نفسه**، [٣] ـ وأن يكون أيضاً **واضحاً ونسقيّاً** قدر الإمكان، [٤] ـ وأن يكون **مؤسِّساً نظريّاً**، [٥] ـ وأن يكون أخيراً متّجهاً نحو قضايا **وأهداف** مطروحة بشكل مسبق"(٥١).

وكأنَّها، أعني: هذه المعايير المقترحة من "فان دايك" للنصّ الواصف/التَّحليل، كأنَّها سيمياء لوظائف النَّصّ نفسه، ولاسيَّما أوَّلها في مقولة: **الفَهْم**، وآخرها في مقولة: **الهدف** والتَّوجُّه، وما بينهما من تأسيس يقوم على منهج موضوعيّ. وليس غريباً إن كانت هذه الضَّوابط كذلك، فالنَّصّ، في ظنِّي، حين يتكوَّن، يحتاج إلى وصف قائم على معايير علميَّة، تكون بمنزلة مفاتيح علميَّة لتحليله وتفسيره وتأويله(٥٢*)، تضطلع بها مقولة "النَّصّ الواصف".

ولهذا حدَّد "فان دايك" جملة من المبادئ من التَّحليل النَّصِّيّ، يمكن بيانها على نحو ما يأتي(٥٣): ١ـ تمتلك النصوص ضروباً مختلفة من المميزات، وأنَّه لمن الملائم أن تمييز مستويات مختلفة من التَّحليل، وهو الأمر الذي دعاه إلى دراسة البنى المائزة لهذه المستويات التَّحليليَّة، بالاعتماد على ميادين مختلفة من النَّظريات النِّسبيَّة في علم النَّصّ، في إطار وصف نصِّيّ أكثر اندماجاً، وتكاملاً وترابطاً لعلاقاتها بعضها مع بعض. ٢ـ "صناعة الوصف البنيويّ للنصوص والسِّياقات بمصطلحات، مثل: الفئات، والوحدات المنتمية إلى هذه الوحدات، وكذلك بمصطلحات الضَّوابط، والمواصفات، أو الاستراتيجيّات التي تحدّد العلاقات بين الفئات، وذلك مثل الطريقة التي تستطيع فيها الفئات أن تتوالف بها فيما بينها في النَّصّ".

ولم تكن قراءة "فان دايك" لضوابط النَّصّ الواصف ثمَّة مقتصرةً على مفهومه النَّظري البنائيّ، صراحة فحسب، بل كذلك فعَّل فعلها الإجرائيّ التَّطبيقيّ أيضاً حين اتّخذ من مقولات "الأبنية العليا، والضَّوابط الكبرى" ــ كما سيأتي ذكرها في دراسة أنظمة المدلول في مفهوم موضوع النَّصّ ــ قواعد تقع اجراءاتها النَّصِّيَّة تحت مفهوم "النَّصّ الواصف"، وما في سماته "الخاصّة بالمستويات البراجماتيَّة والدَّلاليَّة والتَّركيبيَّة العليا أيضاً فيما يمكن أن يطلق عليه نصوصاً مصاحبة"(٥٤)، تلك التي تتقارب مع مقولات "جينيت" في "العتبات النَّصِّيَّة" من قبيل: عنوان الكتاب ومقدِّمته وخاتمته وتمهيده، وعنواناته

الفرعيَّة...، يقول "فان دايك": "ونظراً لأنَّ الأمر هنا يتعلَّق بشكل محدَّد بنصّ عبر نصّ وسياق، فإنَّه يمكن أن يُتحدَّث في تلك الحال عن **نصوص واصفة** "Metatexten"."[٥٥].

ولقد تتعاضد هذه الرُّؤية في تأطير مفهوم "النَّصّ الواصف" مع قراءة عبد الكبير الشَّرقاوي، في ترجمة كتاب "التَّحليل النّصّيّ"، لـ"رولان بارت"؛ ليقدِّم تصوُّرات ملخَّصة عن "ترتيبات التَّحليل وقراءة الأنساق"، التي أجراها "رولان بارت" على جملة من النُّصوص الدينية والأدبيَّة، يقول الشّرقاوي: "يمكن تلخيص عمل بارت التَّحليليّ على النُّصوص في التَّرسيمة التالية"[٥٦]:

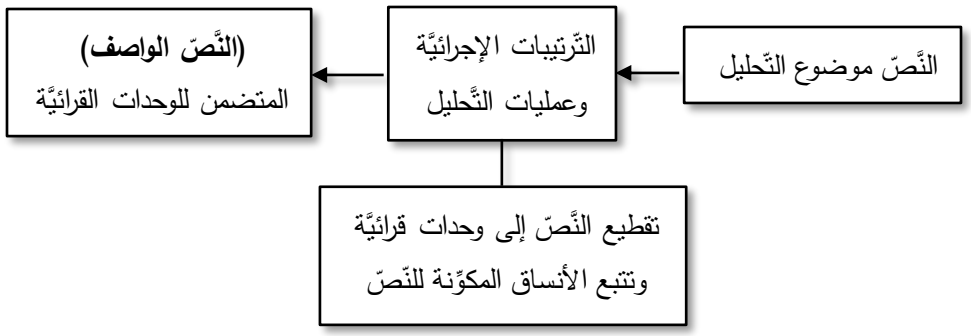

يقول الشَّرقاوي: "**إنَّ المحلِّل ينتج نصّاً جديداً هو النَّصّ الواصف** عبر عمليَّات التَّحليل التي أجراها على **النَّصّ "الأصليّ"** موضوع التَّحليل. لكنَّ هذا **النَّصّ الواصف** هو في الحقيقة ـ حسب بارت ـ النَّصّ الأصليّ **نفسه** وقد تشظَّى وانبذرت معانيه وتفاعلت أنساقه وتجلَّت إيحاءاته وتشكَّلت صورة حركته الدَّاخليَّة"[٥٧].

. قراءة أولى: في الاندماج المفاهيمي والتَّمثيل الإنتاجيّ:

بين "الآنا الواصفة"، وفاعليَّة وظائف "النَّصّ الواصف":

لكي تتبّين لنا فاعليَّة التَّحليل النَّصِّيّ على مستوى قرائيّ منتج، والإفضاء منها إلى تعيين ما يسوغ أن نسمّيه **وظائف "النَّصّ الواصف"**، أُلخصُّ ما يمكن أن يكون من مفهوم حركة النَّصّ الدَّاخليَّة تلك التي يدعو إليها "رولان بارت"، مع توصيف قدرة "**الأنا**" الواصفة، وما ترصده من ذلك، بحسب ما قدَّمه الأستاذ "الشّرقاوي" في ترجمته لـ"كتاب بارت" على نحو ما يأتي:

١ـ ليس للنَّصّ معنًى وحيد، أو معانٍ مترابطة منطقيّاً تتجلَّى بقراءة/تحليل أو بمنهج، من غير النَّظر إلى فاعليَّة الأنساق التي تشكِّله[٥٨]. يقول "رولان بارت": إنَّ القيام بوصف أنظمة المعنى مع افتراض مدلول أخير هو تحيّز ضدّ طبيعة المعنى ذاتها"[٥٩].

٢ـ لا يبحث المحلِّل عن بنيـة الـنَّصّ (فالبنيـة لا تتجلَّـى علـى صـعيد نـصّ فرديّ، بـل علـى مستوى نظـريّ، تجريـديّ، صـوريّ)، ولا عـن معنـاه النِّهـائيّ، أو (المـدلول الأخيـر)، بـل يبحـث عـن **البَنْيَنَـة**[٦٠*]، أي تلك الحركـة الدَّائبـة التـي تكوِّن الـنَّصّ وتفتحـه علـى تفاعـل مستمرّ مـع النُّصـوص الأخر ومـع الأنسـاق الثَّقافيَّة. حركـة الـنَّصّ هذه هي مـا يسمّيه "بـارت" "الدَّلاليَّة"؛ أي: العمليَّـة الدَّائمـة التي بمقتضاها يُصبح النَّصّ فضاءً لتفاعل المعاني وتولّدها المستمر اللامنتهي[٦١].

٣ـ ثمَّـة فرق بـين التَّحديد والتَّحليل النَّصِّـيّ، فـالأخير، هـو عبـارة عـن العمليَّـات الإجرائيَّـة التـي تهدف إلى تبيان السّيرورات/العمليّات الدَّلاليَّة في النَّصّ، وهو بذلك يرفض مبدئيّاً أيَّ توقيـف لاشـتغال النَّصّ وتوالد معانيه، أي كلّ قرار نهائيّ بخصوص "مدلوله الأخير" أيّاً كانت طبيعة هذا المدلول، فهو مختلف عـن التَّحديد أو وضـع محدِّدات خارجيَّـة لتعريـف الـنَّصّ وتحديد هويتـه، كمـا هـو الشَّـأن فـي المنهج التَّاريخيّ أو المناهج الأخرى[٦٢].

٤ـ التَّحليل النَّصِّيّ هو الذي يقدِّم المادَّة الخام للمنـاهج النَّقديَّـة المختلفـة التـي تسلك ــ بطبيعـة منهجها ـ سبيلاً واحد من السُّبُل العديدة التي كشف عنها التَّحليل النَّصِّيّ[٦٣].

أقول: إذا كـان "الـنَّصّ الواصـف"، بحسـب هـذه القـراءة ومقارباتهـا، عبـارة عـن نتـاج جديـد مـن تحليل نصِّـيّ، يكـون الأخيـر فيـه هـو الـنَّصّ نفسـه[٦٤*]، فـإنَّ الـنَّصّ الموصـوف/المحلَّل، علـى ذلـك يمكن أن يكون عبارة عن خلاصـة مـا تنتهي إليه جملـة العمليَّـات والإجراءات التـي تتبيَّن بهـا دلاليّتـه، على نحو مجازفة؛ لأنَّـه غيـر منتهٍ، إنْ دلالـةً أو معنًى، بحسـب "رولان بـارت". وإذا كـان الأمـر كذلك، فإنَّ "النَّصّ الواصف" سيتّصف بتلك الحركة الدَّلاليَّة أيضـاً، وإذا كانت الأخيرة، أي: "الحركـة الدَّلاليَّـة" منفتحـةً علـى تعدُّديَّـة صـفة مـا، فـإنَّ "الـنَّصّ الواصـف" لهـا سـيكون منفتحـاً علـى وصـفٍ تعـدِّدي لا نهائيّ[٦٥*] أيضاً، والدَّليل على ذلـك سمات "**التَّلخيص**"[٦٦]، وتمثيلاتـه المعرفيَّة التي تختلف بحسب القراءات والأنساق، كما سيأتي بيانه، هذا من وجه.

ومـن وجـهٍ آخـر أنَّ قـارئ الـنَّصّ[٦٧*] ــ "الأنـا" الواصفة/الكاشـفة: الشَّـارح ــ سيكون لـه مـن الاعتبار مـا يمكن أن يكون نصّاً آخر أيضاً، حين يتحوَّل إلـى مـا ينبغي أن يكون عليه النَّصّ نفسـه من قراءة تعدُّديَّة منفتحـة. "يقول بـارت عن القـارئ: "إنَّ هذا "الأنـا" الـذي يقترب من النَّصّ هـو نفسـه سلفاً متشكِّلاً من تعدُّد نصـوص أخرى، وأنسـاق لا نهائيَّة، والقراءة ليست فعـلاً عرضيّاً طفيليّاً علـى الكتابة تمنحها كلّ الامتيازات الإبداعيَّة والأولوية. القراءة استقبال للمعنى وكتابة وإنتاج"[٦٨].

إنَّ هذه القراءة ــ أعني: قراءة الأستاذ الشّرقاوي الكريم ــ إنَّما تعكس جوانب مـن رؤى "رولان بارت" في تلك الإجراءات والعمليّات[٦٩] التي أجراها على بعض النُّصوص ـ قراءة تتكامل مستوياتها

المعرفيَّة لو أُضِيف إليها ما تُرِكَ من جوانب توصيف "**اللُّغة الواصفة**" في عتبات المنهج البنيويّ، أي: مصطلح "النَّسق اللُّغويّ الواصف"(٧٠)، أو "نسق اللُّغة الواصفة"(٧١)، و"**التَّلخيص**"(٧٢)، وإجراءاته التي قدَّمها "رولان بارت" في الكتاب، فضلاً عن مفارقة التَّحليل البنيويّ للتَّحليل النَّصِّيّ(٧٣)، كما يقترح "رولان بارت"، لكانت أشمل.

ـ قراءة ثانية: في أفعال الاستكشاف وتقنيّات "اللُّغة الواصفة"(٧٤*):

بين "الأنا الواصفة"، و"القارئ النَّموذجي" ـ "القراءة الاستكشافيَّة":

يُقارب مفهوم التَّحليل/"النَّصّ الواصف" الذي تقدَّم ذكره في قراءة "رولان بارت"، فيما يبدو، مفهوم "القارئ النَّموذجي"(٧٥)، وفاعليَّاته، و"القراءة الاستكشافيَّة"، والتَّحليل الأسلوبيّ عند "مكائيل رفارتير"، إذ يقول: "فالقارئ النَّموذجي كالقارئ العادي يفكّ رموز النَّصّ متقدِّماً في نفس اتجاه المتوالية اللَّفظيَّة،... من البداية إلى النِّهاية". ثُمّ يقول: "استخدام مفهوم القارئ النَّموذجي ليس إلاّ مرحلة استكشافيَّة أولى من التَّحليل: وهو بالطّبع لا يلغي التَّأويل وحُكم القيمة على المستوى الهرمينوطيقي،..."(٧٦).

إلى أن يصف بعنوان "**اللُّغة الواصفة للقارئ النَّموذجيّ**"، وما ينبغي أن يتمسَّك به المحلِّل/القارئ الكاشف/"الأنا الواصفة" بعبارة "رولان بارت"، من اللُّغة الواصفة التي يستعملها، بل لا بديل له عنها في إجراء الوصف والتَّحليل، ليقول "رفارتير": "مع أنّنا قد استبعدنا حتَّى التَّأويل الذي يقوم به القارئ النَّموذجي انطلاقاً من ردّ فعله، فإنَّه من المفيد أن يحتفظ بمصطلحاته التَّقنيَّة التي تكون لغةً واصفة جزئيَّة تابعة بشكل كبير لمقولات البلاغة: (استعارة، مبالغة،...إلخ أو مقابلاتها في اللُّغة السائرة)..."(٧٧)، والسَّبب لما لها من عطاء معارفيّ: وصفيّ تحليليّ إجرائيّ.

ولعلَّه يلتفت مقرِّراً إلى ما في النَّصّ ويستند إليه القارئ في دائرة التَّحليل الأسلوبيّ من أنساق ثقافيَّة ومرجعيَّات لا يمكن إهمالها في التَّوظيف؛ وذلك لأنَّها ستكون كاشفة عن أصولها التَّاريخيَّة وتأثيرها في التَّحليل النَّصِّيّ، يقول: "**موضوع تحليل الأسلوب هو الوهم الذي خلقه النّصّ في ذهن القارئ. وهذا الوهم ليس بالطبع خيالاً خالصاً، ولا وهماً مجانيّاً، فهو مشروط ببنيات النّصّ، وبمثيولوجيَّة، أو أديولوجيّة الجيل والطّبقة الاجتماعيّة للقارئ**". إنَّه من الممكن إذن استخراج الثَّوابت من هذا الإشراط اللامتناهي بقدر تنوّع القراء... لفكّ رموز النَّصّ"(٧٨).

ولا يكتفي "رفارتير" بحدود مبلغ الوصف، بل يجعل منه قيمة إدراكيَّة عليا، في "**فعاليَّة القارئ النَّموذجي**"، أيضاً حين يُنزِل ذلك الإدراك، بوصفه وسيلة استكشافيَّة ــ في "تفكيك سنن الإرساليَّة" ــ ليضع "المحلِّل في نفس موقع المسنِّن..."(٧٩).

وقد يكشف بالضَّرورة ما في ضمير المؤلِّف من نظرة إلى ذلك القارئ، حين يجعل من القارئ فاعليَّة استكشاف أفضل، إذ يقول: "بواسطة القارئ نحصل على مقاربة أفضل؛ لأنَّه هو الهدف المختار بوعي من طرف المؤلِّف، فالإجراء الأسلوبيّ مؤلَّف بطريقة لا يمكن معها للقارئ أن يمرّ بجانبه ولا أن يقرأه أيضاً دون أن يسوقه إلى ما هو جوهريّ،..."[٨٠]، معيِّناً له طرائق للتحليل، بقولٍ، يمتد إلى نحو من وظائف وثوابت، يقول فيها: "فالتَّحليل يحدِّدُ بسرعة ثوابت الكتابة في النَّصّ. وهذه الثَّوابت ليست وقائع إحصائيَّة، ولكنَّها منبِّهات. وكشف الوقائع يؤدِّي بالتَّدرُّج، كما هو الشأن في القراءة العادية، إلى إدراك بعض هذه الثَّوابت على أنَّها متغيِّرات للبنيات. وبمجرِّد أن يتمّ كشف هذه الأخيرة وتحديدها، فإنّنا نُمسك بما يميِّز النِّتاج الأدبيّ"[٨١].

أمَّا عن الكيفيَّات، فتكون بطريقة منطقيَّة استدلاليَّة استلزاميَّة قائمة "على المسألة التالية "**ليس هناك دخان بدون نار**"؛ فكيفما كان مرتكز أحكام القيمة عند القارئ، فإنَّها تأتي بسبب منبِّه (Stimulus) موجود في النَّصّ. ويمكن لسلوك المتلقِّي في إطار وظيفة: مرسل ــ متلقّي [كذا] التي تحيِّن (Actualise) **النَّصّ**، أن يكون ذاتيّاً ومتغيِّراً غير أنَّ له سبباً موضوعيّاً ثابتاً؛ ففي الإرساليَّة اللِّسانيَّة المدركة إلى حدٍّ ما، يكون الانتقال من أثر الأسلوب الكامن إلى أثر الأسلوب الفعليّ بمثابة [كذا] ظاهرة مزدوجة: الوحدة الأسلوبيَّة أوّلاً وبعد ذلك استيقاظ انتباه القارئ"[٨٢].

يبدو لي من هذه القراءة أنَّها فعاليَّة مقتضبة شديدة الاكتناز تُفصح باقتضاء عمَّا نحن فيه من تعيين تقنيات "النَّصّ الواصف"، وطبقاته الكاشفة من فنون القراءة المعّقدة وأفعال التَّأويل وجدل اللُّغة الواصفة، وهي، وإن تعيَّنت في المميزات الأسلوبيَّة والبلاغيَّة، فهذا لا يعني أنَّها لا تجري على نحو لسانيّ في معايير نصِّيَّة أُخَر، وهل النَّصّ في أُسس من تكوينه إلا قيامة من أسلوبٍ!.. وهل الأخير إلا بوسائط تُعبِّر، ومنبِّهات تُسنن!، وهل تنعدم هذه من اللُّغة وشبكة أنظمتها الفاعلة!،... إنَّها فاعليَّة كلٍّ؛ يكون ظهوره فيها على أيقونة يحكي تفاصيلها، ويفجِّر مكنونها فعل القراءة ـ "نصٌّ واصف".

قراءة ثالثة: في هيمنة اللُّغة على خصائص الأنساق والدَّلائل السِّيميائيَّة:

بين مركزيَّة "اللُّغة الواصفة"، والوظائف الكُلِّيَّة للنصّ:

يعضّد "رومان ياكبسون" رؤيته لمفهوم الشعريَّة كمنتج نصّ، على افتراض كُلِّيّ قائم على: "أنَّ اللُّغة يجب أن تدرس في كلّ وظائفها"[٨٣]، ولكي يوضِّح هذا المبدأ قدَّم فكرة "مختصرة عن العوامل المكوِّنة لكلّ سيرورة لسانيَّة ولكلّ فعل تواصل لفظيّ"[٨٤]. صوّر قواعدها التَّأسيسيَّة على أصل: "أنَّ **المرسِل** يوجّه **رسالة** إلى **المرسَل إليه**. ولكي تكون الرّسالة فاعلة، فإنَّها تقتضي، بادئ ذي بدء،

سياقاً تحيل عليه (وهو ما يدعى أيضاً "المرجع" باصطلاح غامض نسبيّاً)، سياقاً قابلاً لأن يدركه المرسل إليه، وهو إمَّا أن يكون لفظيّاً أو قابلاً لأن يكون كذلك، وتقتضي الرسالة، بعد ذلك، **سنناً** مشتركاً، كُلِّيّاً أو جزئيّاً، بين المرسِل والمرسَل إليه (أو بعبارة أخرى بين المُسَنِّن ومفكِّك سَنَن الرسالة)؛ وتقتضي الرِّسالة، أخيراً، **اتّصالاً**، أي: قناة فيزيقيَّة وربطاً نفسيّاً بين المرسل والمرسَل إليه، اتصالاً يسمح لهما بإقامة التَّواصل والحفاظ عليه"(٨٥).

وحين شرع بتأصيل مفاهيم هذه العوامل السّتة قيمةً تأسيسيَّة عامليَّة تفسيريَّة، وصل إلى توثيق ما جرى عليه المنطق المعاصر من امتياز بين مستويين من اللُّغة، وهما: "**اللُّغة ـ الموضوع**" **المُتحدِّثة عن الأشياء**، و"**اللُّغة الواصفة**" **المتحدِّثة عن اللُّغة نفسها**(٨٦*). وهو تمييز يُلحظ فيه ما للغة الواصفة منهما من أثرٍ في الخطاب وتشكيله، ليس العلميّ منه فحسب، بل أثرها الفاعل في الخطاب الاعتياديّ منه، وقيام الأخير متوقّفاً استعمالاً وصحّةً على عوامل من مبدأ "السَنَن". يقول ياكبسون: "إنَّ **اللُّغة الواصفة** ليست أداة علميَّة ضروريَّة في خدمة المناطقة واللِّسانيّين فحسب، فهي تعلب أيضاً دوراً هامّاً في اللُّغة اليوميَّة، فنحن نمارس اللُّغة الواصفة دون أن ننتبه إلى الخاصيَّة الميتالسانيَّة لعملياتنا... في كلّ مرةٍ يرى فيها المرسِل، و/أو المرسل إليه ضرورة التأكُّد ممَّا إذا كانا يستعملان استعمالاً جيّداً نفس السّنن، فإنَّ الخطاب سيكون مركَّزاً على السّنن: إنَّه يَشغلُ وظيفة ميتالسانيَّة (أو وظيفة شرح)"(٨٧).

وهذه الوظيفة، كما يصف "ياكبسون" ممَّا يتمثّل في حوار تخاطبيّ ما تمثيلاً تواصليّاً، فيه "يتساءل المستمع: "إنّني لا أفهمك ـ ما الذي تريد قوله؟" أو بأسلوب رفيع: "ما تقول؟" ويسبق المتكلِّم مثل هذه الأسئلة، فيسأل: أتفهم ما أريد قوله؟"..."، أو هكذا في عبارة: (ماذا يعني هذا؟!، يعني: كذا...). يقول "ياكبسون": "إنَّ الإخبار الذي توفّره كلّ هذه الجمل المعادلتية يخصّ السّنن المعجميّ... ووظيفتها، بصفة دقيقة، وظيفة ميتالسانيَّة. إنَّ كل سيرورة تعلُّم اللُّغة، وخاصَّة اكتساب الطفل للغة الأم، تلجأ بكثرة إلى مثل هذه العمليَّات الميتالسانيَّة،..."(٨٨).

تتحدَّث اللُّغة إذن، عن نفسها في تفسير نفسها وتشكيلها، وليس إلى ذلك فحسب، بل إلى كونها وسيلة للتعليم والتَّدليل على نفسها أيضاً، وهي وظيفة تتمتع بها اللُّغة دون سائر الدَّلائل السِّيميائيَّة(٨٩)؛ لأنَّها تعتمد على العقل والمنطق، وهو الأمر الذي يجعل من اللُّغة الواصفة، الأداة الأولى في توصيف نفسها وتسجيلها، وسواها من الدَّلائل السِّيميائيَّة التي تعتمد هي عليها في دائرة من النَّصّ الواصف.

لقد وظَّف "رومان ياكبسون" بهذه القراءة أهمّ عامل وظائفيّ في النَّظريَّة اللِّسانيَّة، تلك التي تتّخذ من عامل السّنن وظيفة "الميتالسانيَّة"، وهي كونها شارحة واصفة لما تعني النُّصوص التي تشكَّل بها اللُّغة نفسها: واصفة وموصوفة في نصّ واصف. وأقول: إلى أيّ مدى أراد "ياكبسون" أن يؤطِّر عاملاً وظيفته التَّفسير والشَّرح، وهو السَّنن الاتفاقيّ الجمعيّ، الذي عيَّن لنفسه لغةً واصفة وموصوفة؟، وما التَّوافق بين المستويين: اللِّسانيّ، والميتالسانيّ في دائر من قطبين: المرسل والمتلقِّي، تتوقّف رسالتهما التَّواصليَّة عليه، في لغةٍ يترجم كلٌّ منهما لها دالاً ومدلولاً؟.

يبدو أنَّ فاعليَّات "المعرفة المشتركة"، وقيمها الدَّلاليَّة، كما تقدَّم، هي المحور الرَّئيس في التَّشكيل التَّفاعليّ التَّواصليّ، بل هي من المنزلة بداهةً. إذ تنعقد، عليها، وفيها، كلُّ مكوِّنات فعاليّات فهم النَّصّ وتفسيره واستيعابه، وما فيها من تبعات سابقة لاحقة، بتضافر كامل، نسقاً واتفاقاً، فهي لا تكتفي حين التَّوزيع على جانب دون آخر، بل تشترك فيها جميع العوامل الفاعلة في التَّكوين والإنجاز النَّصِّيّ. وهل ثمَّة محور يجسِّد هذه الفاعليَّات، فَيَفِي مثلما تفعله اللُّغة في طبيعتها الاتصاليَّة ووظيفتها الانعكاسيَّة!.

ولقد يتّضح لنا ذلك "الاشتراك المعرفيّ ــ السّنن، كثيراً، حينما نقارب هذا التَّوصيف بمقولات "تحليل الخطاب" الذي قدَّمته دراسات اشتغلت بنحو الممارسة الاجتماعيَّة والثَّقافيَّة وأقامت إجراءاتها على نحو "لغة الخطاب" في كونها مكوِّنة (باسم الفاعل)، ومكوَّنة (باسم المفعول) للخطاب في آن واحد، يمكن إجمالها بما يأتي:

ــ أنَّ النَّفاذ إلى الواقع إنَّما يكون دائماً من طريق اللُّغة؛ بوصفها نقطة الانطلاق، فبواسطة اللُّغة نبني تمثيلات الواقع، هي ليست انعكاسات لواقع موجود سلفاً أبداً، ولكنَّها تساهم في بناء الواقع. وذلك لا يعني أنَّ الواقع لا وجود له في ذاته. فالدَّلالات والتَّمثيلات حقيقيَّة. والأشياء المادية موجودة أيضاً، ولكنَّها لا تكتسب المعنى إلا من خلال الخطاب(٩٠).

ــ اللُّغة ليست مجرَّد قناة يتمّ من خلالها إبلاغ المعلومات عن الحالات الذِّهنيَّة الكامنة وعن السُّلوك، أو عن الوقائع الحادثة في العالم. على النَّقيض من ذلك، هي "جهاز" يولّد العالم الاجتماعيّ، ونتيجة لذلك فهو يشكِّله، ويمتدّ الأمر أيضاً إلى تشكيل الهويّات والعلاقات الاجتماعيَّة. وهو ما يعني أنَّ التَّغييرات في الخطاب هي وسائل لتغيير العالم الاجتماعيّ(٩١).

ـ يُعدّ الخطاب شكلاً للممارسة الاجتماعيَّة، هو في آن واحد **مكوِّن** للعالم الاجتماعيّ، **ومكوَّن** من ممارسات اجتماعيَّة، هو ذو علاقة جدليَّة مع الأبعاد الاجتماعية الأخر، لا يساهم في تشكيلها، وإعادة بنائها فحسب بل يعكسها أيضاً(٩٢).

ـ كلّ مثال للاستعمال اللُّغويّ هو حدث تواصليّ، وهذا يعني أنَّه يتكوَّن من ثلاثة أبعاد:

١ـ النَّصّ: في السّمات والخصائص اللُّغويَّة المكوِّنة له. ٢ـ الممارسة الخطابيَّة: عمليَّات متعلّقة بإنتاج النَّصّ، واستهلاكه. ٣ـ الممارسة الاجتماعيَّة: وهي الأشمل الذي ينتمي إليها الحدث التَّواصليّ(٩٣).

المحور الخطابيّ إذن، هو ذلك النَّسق اللُّغويّ الذي يتّخذ منه الخطاب نقطة شروع، وغاية انتهاء، وهذا ما تفي به اللُّغة الواصفة في فاعليّاتها ووظائفها التَّواصليَّة(٩٤*)، ليس في نقل المعلومات فحسب، بل بالتَّأثير المعرفيّ وتحديد الخصائص الأسلوبيَّة أيضاً، وبهذا يمكن أن نفهم أثر التَّمييز بين اللُّغة في الخطاب الاعتيادي واللُّغة الواصفة في الخطاب العلميّ؛ لأنَّ الأخير، كما يبدو من قيم التَّمييز، سوف يكون هو الحكم المثبت لهذه الانحرافات التي تشير إليها منبّهات النَّصّ، ليعمل في ضوئها مقايسة في تحديد الأسلوبيَّة والأدبيَّة والشعريَّة، يقول "إدوارد سابير": "تمثِّل اللُّغات بالنِّسبة لنا أكثر من كونها مجرّد أنظمة لنقل الأفكار، فهي أكسية غير مرئية تكسو أرواحنا وتسبغ على تعابيرها الرَّمزيَّة شكلاً مهيّأ سلفاً، وحين يكون التَّعبير ذا دلالة غير اعتياديَّة نسمِّيه أدباً"(٩٥).

لقد اتخذ "ياكبسون" من الإجابة اللِّسانيَّة معايير لتحديد قيم مهمَّة في اللُّغة الواصفة وذلك حين اتخذ من النِّظام اللُّغويّ قاعدة في التَّحليل الأسلوبيّ، قال: "لا بدّ أن نذكّر بالنَّمطين الأساسيين للترتيب المستعملين في السُّلوك اللَّفظيّ: الاختيار والتَّأليف،... إنَّ الاختيار ناتج على أساس قاعدة التَّماثل والمشابهة والمغايرة والتَّرادف والطِّباق، بينما يعتمد التَّأليف وبناء المتوالية على المجاورة"(٩٦).

أقول: في مقاربة أخرى، إذا كان النَّصّ "يكوِّن نسقاً يجب ألّا يتطابق مع النَّسق اللِّسانيّ، ولكن أن يوضع في علاقة معه: إنَّها علاقة تجاور وتشابه في الوقت نفسه"(٩٧). ـ فهل ما قيل من توصيف النَّصّ الواصف من كونه تارةً، هو التَّحليل النَّصِّيّ نفسه، وكون الخطاب مكوِّناً للعالم الاجتماعيّ، ومكوَّناً لممارسات الاجتماعيَّة، وفي كونه، أعني: الخطاب، هو من يكوِّن لها معنى الممارسة تارة أخرى؟، فهل هذا يعني أنَّنا نشتغل في تكوين وهمي من صناعة ذهن القارئ مثلاً؟، وإذا كان الأمر كذلك، فما قيم اللُّغة الواصفة ومراتبها من هذه الأنساق، والقراءة تنفتح على خطاب مكوَّن ومكوِّن لنفسه في وصف ذاتيّ، وموضوعيّ في آن معاً؟.

يمكن القول ابتداءً: يرتكز النَّصّ على مرجعيّاته من جانب، وعلى أفعال القراءة وتراكيبها المعقّدة ووعي الذّات المحلِّلة من جانب آخر، ناهيك بمؤسّسات النَّصّ الواصف والتَّشكيل المعرفيّ، ليبقى مدار الفكر على أنساق مختلفة من التَّمثيل يتجلّى باللُّغة الواصفة وقواعدها اللِّسانيَّة، وأنساقها التَّواضعيَّة والمقاصديَّة.

قراءة رابعة: في تحليل النَّصّ "النَّسق اللُّغويّ الواصف":

بين مقولة "التَّلخيص" - انفتاح المعنى - و"أنساق اللُّغة الواصفة":

يخطّ "رولان بارت" التَّحليل النَّصِّيّ في ضوء منهجيَّة: "بنينة، هيكلة سيميائيَّة" من الأنساق والمفارقة، تشتغل كلّها في خطاب تراكميّ للوصول إلى دلاليَّة النَّصّ، على نحو انفتاح لا نهائيّ، ولذلك حدّد المحور القرائيّ بمفهوم يقوم على ثلاثة أُسس شكَّلت أنساق النَّصّ؛ بوصفه موضوع البحث، هي: اللُّغة، والنَّسق، والكفاية، قال: "إنَّ النَّصّ عندنا هو كلام يحيل على لغةٍ، ورسالة تحيل على نسق، وإنجاز يحيل على كفاية"(٩٨).

ولكي ينفّذ استراتيجيّاته التَّحليليَّة حاول أن يفضّ إشكاليَّة المعنى والشَّكل التي يتقوَّم بهما مفهوم النَّصّ، مقارباً بين التَّحليل البنيويّ للسرد، والتَّحليل اللِّسانيّ في التَّوصيف والإجراء على نحو تصوّر من نحو الاختلاف والمقارنة، قال موضّحاً تلك الأسس النَّصِّيَّة السابقة: "جميع هذه من ألفاظ اللّسانيين. إنَّ التَّحليل البنيويّ للسرد هو في أساسه وتكوينه تحليل مقارن: إنَّه يبحث عن أشكال لا عن مضمون... مثل باحث يجمع مواداً لتشييد قواعد نحويَّة؛ ولهذه الغاية، يكون عالم اللِّسانيَّات مضطراً لجمع جُمَل، متنٍ من الجُمل. ولتحليل السرد المهمة ذاتها، فعليه أن يجمع محكيات، متناً من المحكيات، ويحاول أن يستنبط منها بنية"(٩٩).

أمَّا عن المعنى، فقد كان ركنه النَّصِّيّ دافعاً له لإجراء تعديل في مسار التَّحليل النَّصِّيّ؛ وذلك لتعدُّديَّة مدركاته وإمكانات أنساقه، وهو الأمر نفسه الذي دفعه إلى إجراء تأسيسات لاحقه على تصوُّره السّابق في ابتدائه المعمليّ/التَّحليل النَّصِّيّ، قال: "لا توجد آلة لقراءة المعنى؛ حقّاً توجد آلات للترجمة تحتوي الآن وستحتوي حتماً على آلات للقراءة؛ لكن آلات القراءة هذه، إذا استطاعت تحويل معانٍ تعيينية، معانٍ حرفيَّة، فلا تأثير لها على المعاني الثانية، على المستوى الإيحائيّ، وعلى تداعي المعاني في النَّصّ،..."(١٠٠).

ولهذا السَّبب الإدراكيّ من انفتاح النَّسق القرائيّ أجرى تقريره على المحور البنيويّ الشَّكليّ/"الصَّورنة"، بقوله: "أنَّ الاشتغال على معنى أو معاني النَّصّ (لأنَّ هذا هو التَّحليل البنيويّ للسرد) لا يمكن أن ينفصل عن منطلق فينومنولوجي (ظاهراتي)،..."(١٠١). وهو الأمر الذي قاده في سياق التَّحليل أن يقترح عمليّات إجرائيَّة ثلاث: ١. تقطيع النَّصّ، وهو أشبه ما يكون بتقسيم النَّصّ إلى مناطق، وتحديد المناطق التي يمكن أن يشتغل عليها. ٢ـ جَرْد للأنساق الواردة في النَّصّ، وهي كلّ ما التَّرابطات والصّلات المتبادلة المركَّبيَّة والاستبداليَّة، وكلّ وقائع الدَّلالة والتَّوزيع، ٣ـ التَّنسيق: إثبات

التَّرابطـات المتبادلـة بـين الوحدات، والوظـائف المكتشـفة التـي غالبـاً مـا تكـون منفصـلة، أو متكتلـة، أو متشابكة، لأنَّ النَّصّ نسيج وجدليَّة من التَّرابطات المتبادلة.

ولأنَّ مدار النَّظـر علـى نحـو الأنسـاق الثَّقافيَّـة، بوصـفها أنماطـاً معيَّنـة مـن المَاسلَف رؤيتـه وقراءته وفعله: المكوِّن المرجعيّ لكتابـة العالَم، أو بعبـارة أخرى: مجموع القواعد التـي أوجدها المجتمـع، والمعارف البشـريَّة[١٠٢]، فقد أعطـى "بـارت" لهـا الأولويـة فـي جميـع مفاصـل التَّحليل النَّصِّـيّ وسبل تفجيره، ومنهـا "**نسـق اللُّغـة الواصـفة**"[١٠٣]، الذي اتخذ منه طريقة فـي شقّ قنـوات اللُّغـة التَّحليليَّـة، وقـدرتها التَّعبيريَّـة، حـين قرنـه وقاربـه بمسـتويات مـن "**التَّلخـيص**"[١٠٤]، قـال: ""اللُّغـة الواصـفة، هـذا المصطلح يعني اللُّغة التي تتكلَّم عن لغة أخرى، إذا كتبتُ مثلاً كتاباً في قواعد اللُّغة الفرنسيَّة، فإنّني أنجـز لغـة واصـفة، لأنَّنـي أتكلَّم بلغـة (وهـي كتـابي فـي قواعـد اللُّغـة) عـن لغـة هـي الفرنسـيَّة، فاللُّغـة الواصفة هي إذن لغة تتكلَّم عن لغة أخرى، أو يكون مرجعها لغة أو خطاباً"[١٠٥].

ولم يزل يوثّق أمرها في أكثر من موضـع، حتَّى تبدو ثقافة عمل وإجراء نظر، وهي كذلك في حدود وظـائف تشخيصـها الـذي صـار مفهوم "**التَّلخـيص**" عنوانـاً لهـا، كقولـه: "إذا شـطرنا اللُّغـة إلـى شريحتين: إحداهما تعلو علـى الأخـرى، فإنّنـا لا نفعل شيئاً سوى اللجوء إلـى لغـة واصـفة، فلـدينا إذن نسق اللُّغـة الواصـفة"[١٠٦]. وكقولـه: "التـي يمنحهـا المحلِّل اسماً في لغتـه الواصـفة، علمـاً بـأنَّ اللّفظـة اللُّغويَّة الواصفة قد لا تكون موجودة مباشرة في النَّصّ"[١٠٧].

وأمَّا عن "**التَّلخيص**" نسقاً إجرائيّاً واصفاً وما في اقترانه باللُّغة الواصفة، من موافقة، فتُرصد في تلك المقاربـات التـي أجراها بوصـفه، قـال: "**التَّلخيص** هو مشهد لغويّ واصـف، وسمة لغويَّـة واصـفة: يوجد محكي مرجع، ولغة مرجع... محكيات مرجع، ثُمَّ توجد إعادة لغويَّة واصفة،..."[١٠٨].

ولقد يـدخل فـي مـداره مقاربـة أخـرى مـن **التَّنـاصّ** وعلاقـة النَّصّ بـالنَّصّ. وقـال: "تكـون اللُّغـة الواصفة كما قلتُ، حين تتكلَّم لغة عن لغة أخرى، وتلك حـال التَّخيص، الذي هو فعل لغويّ واصـف، لأنَّـه خطـاب يكون مرجعه خطـاب آخر... إنَّ التَّخيص، لسـانيّاً، هو اقتباس للمعنـى دون اللَّفظ اقبـاس للمضمون (لا شكل)، ملفوظ يحيل علـى ملفوظ آخر، لكنَّ مرجعه لمّا لم يعد حرفيّاً، صـار متضمّنـاً لعلم بنينة. المهمّ هو أنَّ التَّخيص يبنينُ لغة سابقة، هي نفسها، فضـلاً عن ذلك مبنينة سلفاً"[١٠٩].

جامعيَّة الأنساق ـ **اللُّغة الواصفة والتَّلخيص** إذن، لهما مورد إرجائيّ، وهو ذلك المحال عليه حين التَّوصـيف؛ لأنَّهمـا: الواصـفة والتَّخيص، لغـة تحكـي عنـه، ولكـن بطريقـة أخـرى، بـدليل إمكـان تحليـل كـلّ منهمـا: اللُّغـة الواصـفة، والـنَّصّ الموصـوف، فـي عمليَّـة مـن البنينـة: التَّحليـل البنيـويّ بمـا يمتلكه من مستويات متقاربة متخالفة.

اللُّغة ـ التَّلخيص ـ لا نهائيَّة المعنى ـ القراءة وأفعالها التَّراكميَّة المعقَّدة:

هل يمتلك نصّ ما مدلولاً نهائيّاً على نحو ما؟، سؤال لا يرد في ذهن "رولان بارت"، فحسب، بل يسري في كلّ مَن له فكر ووعي بمحوري التّكوين المعرفيّ: "القراءة والكتابة"/"العدسة والقرص"، يقول "بارت": لو جلونا عن النَّصّ كلّ بنياته، هل سنصل في لحظة معيَّنة إلى مدلول نهائيّ،...؟"(١١٠). ليست هي استحالة على التَّعيين، بل هي قراءة تُفصح عن تعالٍ يحاول أن يكتشف شيئاً من ذلك التّكوين الإبداعيّ.

لقد ساق "بارت" هذه الافتراضيَّة: اللانهائي من المعاني، وهو بين إشكاليتين: الأولى: اللُّغة والمعنى، والثانية: القراءة والكتابة، ليصل إلى قراءة أخرى تتعلَّق بالتَّمطيط، بوصفه مستوى آخر من **التَّلخيص** الذي يماثل **اللُّغة الواصفة**، على أنَّ التَّمثيل هو الجملة وامتدادها في النَّصّ السَّردي، قال: "إنَّ الحكاية دون تلخيصها، الحكاية كاملة، هي نوع من مرحلة تمطيطيَّة لحال التَّلخيص،... إنَّ المحكي على مستوى معيَّن أشبه بالجملة. ومبدئيّاً يمكن تمطيط جملة إلى ما لا نهاية، ولست أدري أيّ عالم لسانيّات أمريكي (شومسكي أو واحداً من مدرسته) قد قال ما يلي: وهو فلسفيّاً جميل جداً: "إنّنا لا نتكلَّم أبداً سوى جملة واحدة، الموت وحده يقطعها". إنَّ بنية الجملة ينتج عنها أن بإمكانك دائماً أن تضيف كلمات، وصفات، ونعوتاً، وجملاً تابعة أو أخرى رئيسة، ولن تتغيّر بنية الجملة أبداً"(١١١).

ولقد بدا له من منطقيَّة الافتراض، ما قرَّره تصوُّراً مسبقاً، حين قال: "وإذا كانت كلّ الأهمِّيَّة متركِّزة اليوم على اللُّغة، فذلك لأنَّ اللُّغة، كما توصف الآن، تقدِّم لنا نموذج موضوع هو في آن واحد مُبنين، ولا متناه: توجد في اللُّغة تجربة بنية لا متناهية... والجملة هي أوضح مثال على ذلك يمكنك حشو جملة لا نهائيّاً، وإذا أوقفت جُمَلك، إذا أقفلتها،... فذلك لا يكون إلا تحت ضغط أمور طارئة، ناتجة عن التنفّس، والذّاكرة، والإعياء، لكن ذلك لن يكون أبداً بسبب البنية: لا قانون بنيويّ يجبرك على إقفال الجملة، فيمكنك أن تفتحها بنيويّاً إلى ما لا نهاية، وقضية التَّلخيص هي هذه القضية ذاتها، منقولة إلى مستوى السرد. إنَّ التَّلخيص يبرهن على أنَّ الحكاية هي، على نحو ما، بدون نهاية"(١١٢).

نحن إذن، أمام "لغة واصفة" أدخلتْ محورَ "**التَّلخيص**"؛ بوصفه لغة أدبيَّة أخرى، ونصوصيَّة نصّ، تشتري من النَّصّ المحلَّل مستوياته الهيكليَّة: البنيويَّة، وتتّخذ منه محاورَ لوصف ذاتها في الآن نفسه بمعنى لا نهائيّ في قانون من "البنينة"، شرَّعت له أفعال القراءة طريقاً للكتابة، قال "بارت": أن يكتب المرء يعني أن يشرِّح العالم (الكتاب) ويعيد بناءه"(١١٣).

وهذا البناء الإنتاجيّ يخضع لطرائق تراتبيَّة تعتمد على مستويات تحليليَّة، اقترحت أصولها الأنظمة اللِّسانيَّة تحت مفهوم الوصف، قال "بارت": "توفّر الالسنيَّة، لتحليل السرد بنيانياً مفهوماً حاسماً، ويكمن هذا المفهوم خاصة في تنظيمه الذاتيّ، لأنَّها تلفت إلى ما هو جوهريّ في كلّ نسق معنى، وتسمح في الآن ذاته، بإعلان كيفيَّة ألّا يكون السَّرد مجرَّد تلاحق عبارات، وتسهم تالياً بتصنيف الأعداد الهائلة للعناصر التي تدخل تركيب السرد. ودعيت الألسنيّةُ هذا المفهوم "مستوى الوصف" "(١١٤)، مع مجازفة في مقولات تحديد المعاني النَّصِّيَّة، وذلك لأنَّ العمل الأدبي يمسكه معان عديدة في الآن نفسه، وذلك عائد إلى بنينته، لا إلى قصور أو عجز الذين يقرأونه، وهذا ما يشكل رمزيته، وليس الرمز صورة فحسب، إنَّما هو تعدّد المعانيّ(١١٥).

وهذه المستويات هي مستويات التَّحليل اللّسانيّ أنفسها، ولكن في ضوء من تفاعليَّة تنحو بنفسها إلى تكامليَّة النظر والإجراء، قال "بارت": يمكن للباحث أن يصف الجملة، ألسنيّاً، عبر مستويات عدة (صوتيّ، أصواتيّ، نحويّ، سياقيّ)، وهذه المستويات ترتبط بعلاقات تراتبيَّة، إذ لو كان لكلّ مستوى وحداته، وارتباطاته الخاصَّة، لأجبر الباحث على وصف كلّ مستوى باستقلال عن الآخر، وعجز كلّ مستوى على حِدَة عن إنتاج معيَّن: إنَّ كل وحدة تنتمي إلى أيّ من هذه المستويات لا تحوز معنى إلا إذا أمكنها الانتماء إلى مستوى أرقى: لافظٌ أو فونيم، وإن كان قابلاً للوصف في ذاته، لن يقوى على قول شيء: فهو لا يشارك في المعنى إلا منتمياً إلى كلمة؛ والكلمة ذاتها وجب اندماجها في الجملة"(١١٦).

وفي نظرة ثاقبة لمستويات لغة السَّرد، وما يجري عليها من المستويات اللُّغويَّة، يجعل من الأخيرة بعلاقاتها التَّوزيعيَّة والتَّكامليَّة قاصرة؛ عن إبراز المعنى، ولذلك افترض "على الباحث في سعيه إلى تحليل بنيانيّ، أن يميّز عدّة أحكام في الوصف، ويضع هذه الأحكام في رؤية تراتبيَّة تكامليَّة"، وعلى الالسنيَّة أن تضاعف من عمليّاتها(١١٧).

ولذلك قال، أعني "بارت": "أيّاً كان عدد المستويات التي يقترحها الباحثون والتَّحديد الذي يمكن أن يُعطاها، لا يسعنا الشَّكّ أن يكون السّرد تراتبيَّة أحكام، أن يفهم المرء سرداً، لا يعني فقط أن يتتبَّع تحلّل التاريخ، بل أن يعترف بوجود مراتب، ثُمَّ أن يسقط التَّتابعات الأفقيَّة "للخيط" الإنشائيّ على محور عاموديّ ضمناً؛ وأن تقرأ... سرداً، لا يعني فقط أن تمرّ من كلمة إلى أخرى، بل أن تتجاوز المستوى إلى آخر "(١١٨).

تنشط إذن، حركة "**اللُّغة الواصفة**"، و"**التَّلخيص**"، على محور من النَّصّ، لتعود عليه بالنفع وصفاً من طرائق تتخذ من أنفسها وظائف ومستويات في النَّصّ الواصف، يكون الأخير نتاجاً من

قراءة، لا تقف عند حدّ نهائيّ من معنى النَّصّ ـ دلالاته[١١٩*]، بل لتجعل منه حركة لاكتشاف رمزيته، تصل منه إلى قراءات متعدِّدة، يكون فاعلُها الباحث اللِّسانيّ، في فضاءات، مِقرابُه فيها اللُّغة الواصفة وفاعليّاتها الإجرائيَّة.

النّصّ كتاب مفتوح على المعاني لرمزيَّة اللُّغة وحركة الوعي المتجدِّد:

بين الكتاب والشّرح . التَّفسير والنَّقد إعادة لإنتاجيَّة الرَّمز النَّصّي ـ الأثر المفتوح:

يسترجع "بارت" ثقافة العصر القديم لمقاربة مستويات النَّظر إلى النَّصّ بالعصر الحديث وثقافة الكتاب، فإذا كانت "الكتابة بشكل ما، تهشيم للعالم، فإنَّها إعادة لبنائه وخلقه من جديد[١٢٠] أيضاً، فليس الناقد كالقارئ، بل ثمَّة مفارقات تتعلَّق بالاشتغال والعمل والتَّحليل، ناهيك برغبة القراءة؛ بوصفها عمل الذات والكتابة، فالناقد يقرأ ليواجه خطر الكتابة، يقول "بارت: "لقد أقام العصر الوسيط حول الكتاب أربع وظائف متميّزة: "الناسخ" (وهو الذي ينسخ دون إضافة). و"المصنف" (وهو الذي لا يضيف من أشيائه شيئاً أبداً). و"الشارح" (وهو الذي لا يتدخل من تلقاء نفسه في النَّص المنسوخ إلا ليجعله مدركاً). وأخيراً، "المؤلّف" (وهو الذي يعطي أفكاره الخاصة، معتمداً على سلطات أخرى)"[١٢١].

وهنا تأتي الإنتاجيَّة وإعادة القراءة بقول "بارت": "إنَّ مثل هذا النِّظام لمقام بوضوح لغاية واحدة، وهي الإخلاص للنصّ القديم. إذ هو النَّصّ الوحيد المعترف به... ومع ذلك، فإنَّ مثل هذا النِّظام ينتج "تأويلاً" للقديم سارعت الحداثة برفضه. وأنَّه ليبدو لنقدنا الموضوعيّ "هاذياً" تماماً. ذلك لأنَّ الرؤية النَّقديَّة تبدأ "بالمصنف" نفسه: إذ ليس من الضَّروري أن يضيف المرء من عنده شيئاً على النَّصّ لكي "يشوهه": يكفي أن يسرده، أي أن يفكّكه. وهكذا يلد معقول جديد مباشر. ويُصبح هذا المولود مقبولاً إلى حدّ ما. فهو ليس أقلّ بناءً من الأوّل. والناقد ليس شيئاً آخر سوى "الشارح"، ولكنَّه يملأ هذه المهمَّة تماماً (وهذا يكفي لعرضه): فهو، من جهة أولى، مرسل، يقود مجدّداً مادة مضى العهد بها... وهو من جهة ثانية، عامل. فهو يعيد توزيع عناصر العمل مجدّداً، وبشكل يكسبه نوعاً من الذكاء، أي يكسبه نوعاً من المسافة"[١٢٢].

وبهذا المعنى يفتح النَّصّ الكتابَ والكتابة، لا ليقف عند دلالة أُحاديَّة، بل على قراءات تعدُّديَّة وبنائيَّة، والمرجعيَّة في التَّوصيف قيم ما في الرَّمزيَّة التي يعتمد عليها، والمعاني الثانوية التي تُقيم عليه وفيه، يقول "بارت": "إنَّ كلّ عصر من العصور يعتقد فعلاً، أنَّه يمتلك المعنى الشَّرعي للكتاب، لكن يكفي أن نوسّع التّاريخ قليلاً لكي يتحوّل هذا المعنى المفرد إلى المعنى المتعدِّد، ولكي ينتقل الكتاب من انغلاقه إلى انفتاحه. إنَّ تعريف الكتاب نفسه يتغيَّر، فهو إذا كفّ عن أن يكون حدثاً

تاريخياً، فإنَّه يُصبح حدثاً انتروبولوجياً. وذلك لأنَّ التاريخ أيّاً كان، لا يستطيع أن يستهلكه. وهذا يعني إذن أنَّ تعدُّديَّة المعنى لا تأتي من رؤية نسبيَّة، توحي بها الأخلاق الإنسانيَّة. فالتَّعدُّديَّة لا تشير إلى ميل المجتمع نحو الخطأ، ولكنَّها تشير إلى استعداد الكتاب نحو الانفتاح. والكتاب يمتلك في بنيته، وليس عجزاً من أولئك الذين يقرأونه، عدداً من المعاني في الوقت نفسه. وهو بهذا يعتبر رمزيّاً: وليس الرَّمز صورة إنَّه تعدُّديَّة المعاني نفسها. إنَّ الرَّمز ثابت، أمَّا الوعي الذي يملكه المجتمع والحقوق التي يعطيها له، فهي التي تتغيَّر..."[١٢٣]؛ فقراءة رمزيَّة التَّكوين هي التي تختصّ بالتَّأويل، وهي التي تجعل من الكتاب عطاءً مستمراً من الدَّلالات والمعاني، يقول "بارت": "إنَّ الكتاب "خالد" ليس لأنَّه يفرض على البشر المختلفين معنى واحداً، ولكن لأنَّه يوحي بمعانٍ مختلفة لإنسان واحد، يتكلَّم دائماً اللُّغة الرَّمزيَّة نفسها عبر الأزمنة المتعدِّدة: الكتاب يقترح، والإنسان يتصرَّف"[١٢٤].

ولم يزل "بارت" يقترح حتَّى نقده لـ"فقه اللُّغة واللِّسانيّات"، وكيف أنَّهما يقفان عند حدود المعنى الحرفيّ للعبارة، دون المعاني الثانويَّة التي لا تنحصر عند القراءة، مع توثيق سدّ النَّقص الحاصل بإثبات مشروعيتها: المعاني، يقول "بارت": "إنَّ مهمة فقه اللُّغة تكمن في تثبيت المعنى الحرفي للعبارة. ولكن ليس لفقه اللغة أي سيطرة على المعاني الثواني. ونجد، على العكس من ذلك، أنَّ اللسانيات تعمل، لا على تقليص غموض اللُّغة، ولكن على فهمه. بل، ويمكن أن نقول إنَّ اللسانيّات تعمل على تأسيس مشروعيته"[١٢٥].

يقف **النَّصّ** حائراً أمام سيميائيَّة **الرَّمز**[١٢٦*] حين التَّشكيل والاستنطاق، ثُمَّ العمل على تكوين وصف نصّيّ، لأنَّ الأوَّل به يتكوَّن؛ ليكوِّن الأخير به حياةً من المعاني والدَّلالات لا تنقطع بزمنيَّة قراءة دون أُخرى، والمدار، في تصوّري اليسير، صناعات ذرِّيَّة من أرشفة النَّصّ الواصف، وآليّاته التَّكوينيَّة وأدواته التَّفسيريَّة في "إيقاظ معنى النَّصّ"[١٢٧]، والعمل على تمثيل تشكلاته المعرفيَّة إنجازاً وتطبيقاً، أي: ما يصل به الإنسان إلى تنفيذ إدراك، يسبقه فهم.

قراءة خامسة: من فلسفة التَّحليل إلى موضوع اللُّغة الشّارحة ـ الواصفة:

بين لغتين: "لُغة الأشياء" الموضوع، و"لُغة الشّرح" ـ التَّفلسف ـ والجامع الوصف:

قدرُ اللُّغة أن تكون في عوالم متداخلة متوافقة متفارقة، متواصلة متفاصلة، وأن تتحدَّث عن العالم، والإنسان، والأشياء ووعيه وإدراكاته، وقدرُ العالَم وما فيه أن يتكلَّم بواسطتها عن نفسه موضوعاً، بل قدر كلّ شيء أن يكون في لُغةٍ ذات نسيج ونسق يتمظهر بأبعاد: داخليّ فيها يتولّد منها، وخارجيّ ينبئ عنها تجليّاً، في بنينة، تهيكلُ فيها نفسها نظاماً وسلوكاً، فلماذا لا تكون هي

جامعـة الوصـف فـي فلسـفة التَّكـوين المعرفـيّ ومنطقـة النِّـزاع والحـلّ فـي إشـكاليّاته؟. إنَّهـا مملكـة مـن أفكار، تجد نفسها في مناخها واضطراب عواملها!.

لقد ارتقت الفلسفة التَّحليليَّة الحديثة بنفسها حين نظرت إلى اللُّغة على أنَّها من أهمّ أبحاثها، وحين أدركت أنَّ اللُّغة ليست فحسب مجرَّد وسيلة، بل هدف من أهداف البحث الفلسفيّ، بل مركز التَّفكير الفلسفي المعاصر، ليقوم تصوّر على أساسه يأخذ بالفلسفة التَّحليليَّة إلى تعريفها بأنَّها دراسة اللُّغة(١٢٨)، وتقرير أنَّ البحث "في اللُّغة مبحث أساسيّ للفلسفة ما دامت فكرة وجود العالم ذاته ــ مصدر مشكلاتنا الفلسفيَّة ـ لا معنى لها إلا في إطار نسق من التَّصوُّرات، وتُصاغ هذه التَّصوُّرات في لغة بالضَّرورة، وإنَّ خبراتنا عن العالم تفصّلها اللُّغة وتوضِّحها"(١٢٩).

وهل هذا كلّ شيء؟! "إنَّ اللُّغة تخلق أو تساعد على خلق تصوُّر العالم الخارجيّ؛ لأنَّ العالم لا يمكن معرفته إلا بواسطة اللُّغة، وفي غيابها فإنَّ وجوده لن يكون سوى تراكم أو سديم. إنَّ اللُّغة هي التي تجعل من هذا العالم الموجود في ذاته en soi عالماً لنا نحن. إنَّ اللُّغة تحوُّل العالم من عالم موضوعيّ إلى عالم مختلف ندركه بواسطة الفكر. فاللُّغة ليست معطى متناهياً ولا جامداً، وإنَّما هي حركة وصيرورة وطاقة"(١٣٠).

ولهذا أوجدت بعض القراءات الفلسفيَّة طريقة جديدة في النَّظر إلى فلسفة اللُّغة، وُسِمَت "بالجذريَّة لأسباب عدّة بداية من الرّغبة في القطع (volonte de rupture) التي أظهرها الآباء المؤسِّسون لهذا التّيار (فريجه، رسل، كارناب)، الراغبون في الانتهاء من نوع من الانحراف (derive) في الفلسفة تجسَّد في أعينهم بالميتافيزيقا الموروثة من القرون المنصرمة. وإذا كان نقد الميتافيزيقا ليس جديداً، فإنَّ الطَّريقة التي أرادوا انتهاجها هي كذلك وتتصف بالجذريَّة. فلم يَعد التَّعرُّض للأنظمة الفلسفة بسبب من مبادئها أو فرضيّاتها، ولا حتَّى بسبب آثارها المحتملة، ولكن وفي الظَّاهر على لغتها"(١٣١)، وقدرة اللُّغة على التَّعبير عنها.

ولكي نقف على معنى فلسفة العتبة الأولى ـ أعني: ما وضعناه عنواناً لقراءة التَّحليل، بوصفه فلسفةً ــ نعرض ما قُدِّمَ من قراءة لـ"رودلف كارناب"(١٣٢*)، ومباحثه في التَّحليل المنطقيّ للتراكيب اللُّغويَّة، على نحو ما يأتي:

رفض "رودلف كارناب" أن يكون مفهوم فلسفة بقسمها الميتافيزيقيّ، بحثاً في أشياء، لا تقع في مجال الحِسّ، مثل: "الشيء في ذاته" و"المُطلَق" و"المُثُل الأفلاطونية"، و"العِلَّة الأولى للعالم" و"العدم" و"القِيَم الأخلاقية والجماليَّة"، وهو إذ تبرَّأ من ذلك قبل بها: الفلسفة، على شريطة أن تُفْهَم الكلمة بمعنى التَّحليلات المنطقيَّة للعبارات اللُّغويَّة، ذلك لأنَّ التَّركيبات اللُّغويَّة التي تُعنَى الفلسفة بتحليلها،

هي في الأغلب ما تقوله العلوم المختلفة من قضايا، وإذا كان الأمر كذلك أمكن أن نقول عن الفلسفة إنَّها منطق العلوم، أي: تحليل القضايا العلميَّة تحليلاً يُبرِز طريقة تركيبها وصورة بنائها ليتَّضح معناها[١٣٣].

إنَّ الفلسفة في معارف "كارناب" ليست منافسة للعلوم في موضوعات بحثها، بل هي تخدم تلك العلوم بتوضيح قضاياها، ومعنى ذلك أنَّه إذا كان عمل العلوم هو أن تقول أقوالاً عديدة في وصف الأشياء الطبيعيَّة على اختلافها، فعمل الفلسفة هو البحث في منطق تلك الأقوال العلميَّة لتَجْلِيَة غامضها، فعلم الحيوان ـ مثلاً ـ يبحث في الحيوانات نفسها من حيث خصائصها وعلاقاتها بعضها ببعض، وعلاقاتها بما ليس حيواناً... إلخ، وأمَّا الفلسفة في هذه الحالة فمهمتها تحليل العبارات التي قيلت في الحيوان[١٣٤].

مهمّة الفلسفة في مدركات الوضعيين المنطقيين، ومن بينهم "كارناب" إذن، هي التَّحليل؛ تحليل أيَّة عبارة ممّا يقوله الناس بصفة عامة، وتحليل العبارات العلميَّة بصفة خاصة، وبعبارة مختصرة: "أن تتفلسف معناه أن تُحلِّل"[١٣٥].

إنَّ ما يمتاز به التَّحليل لدى "كارناب" هو ما عقده في مؤسَّساته من الاشتغال والبحث في "السّميوطيقا "علم الرموز" وتقسمه إيّاها على ثلاثة أقسام، هي[١٣٦]:

١ـ **البراجماطيقا**: وهي ما تبحثه في المتكلّم نفسه باعتباره أداة الكلام. ٢ـ **السّمانطيقا**: وهي البحث في مدلولات الألفاظ. ٣ـ **السنتاطيقا**: وهي البحث في العبارات اللُّفظيَّة نفسها من حيث تركيبها وتكوينها، بغضّ النَّظر عن المتكلِّم وبغضّ النَّظر أيضاً عمَّا تشير إليه الألفاظ من مدلولات.

لقد كان لهذا التَّقسيم أثره الفاعل في قراءاته اللاحقة، في دراسة اللُّغة ومعاييرها الرَّمزيَّة، إذ لم يكتف "كارناب" بذلك، بل حاول النَّظر أيضاً في علاقات اللُّغة بالمدلولات من جهة، والمتكلّم من جهة أخرى[١٣٧].

إنَّ ما سعى إليه "كارناب" من بحث هو إيجاد لغة عالميَّة في الوصف لا تقتصر على لغة معيَّنة، بل يكون عامّاً وضروريّاً، ينطبق على أيَّة لغةٍ تصلح للتفاهم، وهو اقتضاء فيه من التَّجريد الصَّرف؛ ولكي يكون ناقديه في جانب فرَّق بين ما يسمّيه أوّلاً: "السمانطيقا الوصفيَّة"، وثانياً: "السمانطيقا المجرَّدة". أمَّا الأولى فهي التي تتناول اللغات الفعلية، ما يتم بها التفاهم فعلاً، القديمة منها والاستعماليَّة، ثم تسجيل قواعدها وقوانينها في حدود من التَّداول والتأويل للرموز اللُّغويَّة. وأمَّا الثانية ــ وهي موضع عناية "كارناب" ــ فهي تصدق على كلّ لغة يمكن أن تكون أداة للتفاهم؛ ولأنَّ عنايته البحثيَّة كانت للسنتاطيقا لذلك كان له من الاهتمام ما يجري على المنطقيّ منها أيضاً.

ومعلوم أنَّ البحث السمانطيقي يتناول كيفية الدَّلالة التي تكون للألفاظ، كما يتناول البحث في معنى الصدق، والبحث في الاستنباط المنطقي، أي كيف نستنبط قضية صادقة من أخرى صادقة[١٣٨].

ولكي يكون الدَّليل على الدَّلالة في الألفاظ، صار التمييز بين نوعين من الكلام/اللُّغة يُسمِّيهما "كارناب" على التوالي: "**بلغة الأشياء**"،"Object Language"، و"**لغة الشَّرح**" "Meta-language"[١٣٩] فلغة الحديث العادية هي "**لغة أشياء**"[١٤٠*]، أي: إنَّ الناس يستعملونها ليتحدّثوا عن الأشياء، التي يريدون أن يتحدَّثوا عنها، كما يقول المتكلِّم لسامعه: "الكتاب على المنضدة". وأمَّا إذا تحدّثنا عن هذه اللُّغة نفسها، كأن أقول مثلاً عن اللُّغة العربيَّة: "إنَّ ألفاظها لا تخرج عن أن تكون اسماً أو فعلاً أو حرفاً" كانت هذه اللُّغة الجديدة "**لغة شارحة**"، أو إن شئت فقُلْ: **إنَّها لغة للُّغة لا لغة للأشياء** التي من أجل وصفها والحديث عنها خُلِقَت اللُّغة بمعناها الأوَّل. "فإذا كُنَّا نبحث ونُحلِّل ونَصِفُ لغةً ما (ولنرمز لها بالرمز "ل١") فإنّنا بحاجة إلى لغة أخرى (ولنرمز لها بالرمز "ل٢")، نصوغ فيها نتائج بحثنا في "ل١"، أو نصوغ فيها قواعد استعمال "ل١"، في هذه الحالة نُسمِّي "ل١" "**لغة الأشياء**"، ونُسمِّي "ل٢" "**لغة الشرح**". فلو كُنَّا نصف بالإنجليزيَّة التَّركيب النَّحويّ للغة الألمانية الحديثة أو اللُّغة الفرنسيَّة الحديثة، أو إذا كنّا نصف التَّطوُّر التَّاريخيّ لصُوَر الكلام، أو نحلِّل المؤلَّفات الأدبيَّة في هاتَين اللغتَين، عندئذٍ تكون الألمانيَّة والفرنسيَّة بالنِّسبة لبحثنا لغتَي الأشياء، وتكون الإنجليزيَّة لغة الشرح، وكلّ لغة كائنة ما كانت يمكن اتخاذها لغة أشياء، وكلّ لغة فيها تعبيرات صالحة لوصف معالم اللُّغات يمكن اتخاذها لغةً شارحة، وقد تكون اللُّغة الواحدة لغة أشياء، ولغة شرح في آنٍ واحد[١٤١].

إنَّ "السِّمانطيقا" من حيث هو بحث في دلالات الألفاظ والعبارات على معانيها، يشتمل على الدراسات التي تترجم لغة الأشياء إلى لغة شارحة، وبعبارة أيسر: السمانطيقا هي دراسة معاني العبارات اللُّغوية، فمحور السمانطيقا إذن، هو دلالة اللفظ على مُسمَّاه، وهذه الدلالة ما هي إلا علاقة قائمة بين اللفظ وبين شيء آخر مرموز له، يقع خارج حدود اللُّغة، فكلمة "العقاد" تدلّ على شخص بين الناس معيّن بصفات خاصة، وواضح أنَّ هذا الشخص المُشار إليه ليس كلمة من كلمات اللُّغة، إنَّما هو شيء في عالم الأشياء، فالسمانطيقا إذن هو ربط العلاقة الدَّلاليَّة بين الكلمة أو العبارة، وبين الشيء أو الحادثة المُشار إليها في عالم خارج عن حدود اللُّغة بكلّ ما فيها من كلمات وعبارات. فإذا أردنا بناء لغة محدَّدة الدلالات، جعلنا رمزاً خاصّاً لكلّ مُسمًّى على حدة، ولمَّا كانت المُسمَّيات ــ أي الأشياء ــ ثلاثة أقسام: أفراد، وصفات تصف الأفراد، وعلاقات تربط كلّ فرد بغيره من الأفراد؛ أمكن أن نتصوَّر رموز لغتنا مُقسَّمة إلى مجموعات ثلاث على النَّحو الآتي:

س١، س٢، س٣، س٤ ... إلخ، وهي أسماء المفردات.

ص١، ص٢، ص٣، ص٤ ... إلخ، وهي أسماء الصفات.

ع١، ع٢، ع٣، ع٤ ... إلخ، وهي أسماء العلاقات.

حتَّى إذا ما تمَّ لنا ذلك، كانت كلّ عبارة لغويَّة مؤلَّفة من مجموعة من هذه الرموز، وأمكن في كلّ عبارة أن نطابق بين التَّركيبية الرمزية وما تدلّ عليه خارج حدود الرّموز [١٤٢].

بقي من أهمِّيَّة البحث اللُّغويّ عند "كارناب" الأمر الثالث، وهو ما سمّاه "السنتاطيقا" التي تبحث في القول بالنِّسبة إلى علاقة رموزه بعضها مع بعض، بغضِّ النَّظر عن قائله، وبغضِّ النَّظر عن دلالته وصدقه[١٤٣]، ولا ريبَ في أنَّ هذا له امتداد بسابقه والكلام على لغة الأشياء، ولغة الشّرح ما يشكل قراءة بناء لهذا الوصف اللُّغويّ.

يقول "كارناب": "إنَّ اللُّغة تتميَّز من ناحية بنائها وتكوين عباراتها ـ أي من الناحية السنتاطيقية ـ بمجموعتَين من القواعد تسير وفقهما: ١ـ **قواعد التَّكوين.** و٢ـ **قواعد التَّحويل.** فالأولى: تُبيِّن كيف تتركَّب الجملة من الرموز اللُّغويَّة الجزئية. والثانية: تُبيِّن كيف نشتقّ جملة من جملة أخرى"[١٤٤]. ومنهما معاً، أي: "قواعد التَّكوين، والتَّحويل"، يمكن الإلمام باللُّغة كلّها من حيث مبنى عباراتها وعلاقة الرّموز اللُّغويَّة بعضها ببعض في الجملة الواحدة، وعلاقتها بعضها مع بعض في الصِّيغ الرّمزيَّة المختلفة، ولكي لا يحصر "كارناب" نفسه في هذا الأمر، وسَّع من نطاق بحثه، بحيث شمل الجانبَين الآخرَين: جانب السمانطيقا الذي يربط فيه بين العبارة ومدلولها الخارجي، وجانب البراجماطيقا الذي يربط فيه بين العبارة وقائلها، وبذلك تكمل جوانب البحث في منطق اللُّغة[١٤٥].

ولكي يستقيم البحث الفلسفيّ اللُّغويّ في منطقة من "التَّحليل"، يفرِّق "كارناب" بين ثلاثة أنواع من العبارات، هي[١٤٦]:

١ـ عبارة شيئية، أي: تتحدَّث عن شيء ما مباشرة دون توسُّط اسم ذلك الشيء، كأن تضع على الورق بقعة خضراء، وتكتب إلى جانبها كلمة أخضر، على اعتبار أن يفهم القارئ مما يراه جملة: "هذا أخضر". ومن قبيل ذلك أيضاً تكتب ـ مثلاً ـ الرقم (٤) وإلى جانبه تكتب عبارة "عدد زوجي"، فعندئذٍ العبارة الوصفية "عدد زوجي" تصف الشيء الموصوف مباشرة وهو (٤).

٢ـ عبارة سنتاطيقيَّة، وهي التي تتحدَّث عن كلمة من كلمات اللُّغة، كأن تقول مثلاً: "يكتب: مُكوَّنة من أربعة أحرف"، "المقعد، كلمة تُقال عن أيّ شيء مُعَدٍّ للجلوس".

٣. عبارة تتذبذب بين النوعَين السابقَين، فهي مصوغة على نحو يوهِم بأنَّها تتحدث عن شيء ما مباشرة (كأنها من النوع الأول)، بينما هي في حقيقة أمرها تنتمي إلى النوع السنتاطيقي (النوع الثاني)، و"أمثال هذه العبارات سنطلق عليها اسم (عبارات تتحدَّث عن أشباه أشياء)".

إنَّ هذا النَّوع الثالث هو الذي يقع وسطاً بين العبارات الشيئيَّة والعبارات السِّنتاطيقيَّة، وهو الذي تنتمي إليه مسائل وعبارات كثيرة متّصلة بالأبحاث الفلسفيَّة. مثال ذلك: لو افترض أنّنا في مناقشة فلسفيَّة عن فكرة العدد، وأردنا أن نُقرِّر أنَّ هنالك فرقاً جوهريّاً بين الأعداد من جهة والأشياء (الطبيعيَّة) من جهة أخرى. فقلنا هذه الجملة: "خمسة ليست شيئاً لكنَّها عدد" (ج١). فظاهر هذه الجملة هو أنَّها تصف العدد خمسة بوصف معيَّن، شأنها ذلك شأن هذه الجملة الآتية: "خمسة ليست عدداً زوجيّاً بل هي عدد فردي" (ج٢) مع أنَّ الجملة الأولى (ج١) في حقيقة الأمر لا تقول شيئاً عن العدد خمسة، بل هي خاصّة بالكلمة (لا العدد) خمسة، ويتبيَّن هذا من الصّيغة الآتية (ج٣) التي يمكن أن نُحلَّها محلّ الجملة الأولى (ج١): ""خمسة" ليست كلمة دالّة على شيء، بل هي كلمة دالة على عدد." فبينما (ج٢) عبارة شيئيَّة بالمعنى الصَّحيح أي: تتحدّث عن شيء ما مباشرة، دون وساطة كلمة دالّة عليه ترى أنَّ (ج١) عبارة تتحدَّث عن شبه شيء، أي: توهم بأنَّها تتحدّث عن شيءٍ والحقيقة هي أنَّها تتحدَّث عن كلمة[١٤٧].

أقول: لم تخرج سياقات الدَّرس اللُّغويّ عن أصولها في قراءة "كارناب"، فمنطق اللُّغة وفلسفتها كلّ منها يقتضي الوصف، وهو ما عمل على تكوينه دراسةً، باللُّغة؛ بوصفها مشكلة تعمل على تحليل نفسها والوصول منه إلى حلّ؛ لأمرين، الأوَّل: بوصفها شئياً، يصف موضوعاً، تتحوّل به إلى موضوعه بالافتراض، والثاني: بوصفها واسطة، وكلّ من الافتراضين، إنَّما يكون باللُّغة ــ علاماتها المكوّنة للحديث عن الشّيء، ثُمَّ تنظر فيه فلسفة ـ تحليلاً وشرحاً.

رحى النَّصّ الواصف تستقطب إذن، ليس البناء الموضوعيّ فحسب، بل تجري من العمل على فلسفة تكوينه وفهمه بالتَّحليل والشَّرح، والأخير له من لغة المنطق الواصف، ما يكوّن منه لغة ثانية ـ تتصف بسمة اللُّغة الشّارحة، أداتها اللُّغة المنطقيَّة القائمة على التَّحليل.

. قراءة سادسة: "اللُّغة الواصفة" مهمَّة لسانيَّة ــ سيميائيَّة:

وظائف "اللُّغة الواصفة" ومحاكاة النَّص الواصف:

حين تهم اللُّغة ــ كما يُنقل عن "هيدجر" ــ بتسمية الأشياء تقوم بمناداتها؛ لكي تقربها إلى عالمها فتحتويها بالوصف، عندها ينبثق المعنى من هذه العمليَّة المعقدّة التي ينتجها الفعل اللُّغويّ، ولا تتلخص العلاقة بين اللُّغة والواقع أو العلامة ومرجعها إلا في المعنى المشيَّد عن طريق وصف اللُّغة

للأشياء، وتسميتها[١٤٨]. من هنا يمكن رصد ما يتعيَّن من مفاهيم "اللُّغة الواصفة" ليس بوصفها أداةً في نصّ واصف، في موصوف موضوعيّ للأشياء، فحسب، بل بوصفها علماً قائماً بذاته، وموضوعاً مطروحاً على عتبة التَّنظيم اللِّسانيّ والسِّيميائيّ، بل من مهمّاتها ووظائفها الأساسيَّة أيضاً.

ولقد طُرِحَت، في هذا المجال، جملة من التّساؤلات عن "إمكان تصوّر لغة واصفة لها فرضيّات قابلة لأن تتحوّل إلى أوليّات على غرار ما هو عليه العلم"[١٤٩]، وعن أيّ مؤسّسة من مؤسّسات الفكر يمكن أن تبلي هذه المهمَّة الكبرى بالضَّرورة، وعلى أيّ تقطع مسؤوليَّة الوصف الأوَّل؟.

في ضوء ما تمثِّله "اللُّغة الواصفة" من الوجهة السِّيميائيَّة من كونها "علامة تتحدَّث عن علامة من جنسها، فهي علامات الكلام ـ الموضوع..."[١٥٠]. قُدِّمت قراءات اتجهت أنفسها نحو نظام من التّكوين العلاميّ، "إلى وضع قواعد لنسق سيميائيّ واصف سرعان ما بدأت ملامحه ومعالمه في الاكتمال لتضحى نظريَّة في اللُّغة الواصفة؛ ولا سيّما مع مؤلّف كارناب "التَّركيب المنطقيّ للغة"."[١٥١].

ولقد أُسنتد هذه المهمَّة بكلّ أبعادها إلى ما تضطلع به السِّيميائيّات؛ "علم العلامات"، بوصفها التَّطابقيّ لـ"علم مناهج العلوم"، و"علم الدَّلائل"[١٥٢]، و"العلم الواصف"[١٥٣]، وفي "الواقع سعى الجدد إلى تطبيق آليّات الاستنباط من أجل صورنة اللُّغة بوصفها جبراً خاصّاً، بعد أن يتمّ التّمييز بين اللُّغة الواصفة ولغة التَّمثيل، أي بين النَّسق اللُّغويّ الذي يشترط لصحّته الامتثال لمبدأ النَّحويَّة من جهة، ونسق العالم من جهة أخرى الذي يجعل المنطقيّ يستعين بـ"لغة واصفة"؛ لتوكيد صحّة الوقائع التي تعرض له في شكل قضايا وعبارات"[١٥٤].

ولأنَّ السِّيميائيّات في القراءات المعاصرة تقدّم نفسها على أنّها علم العلم[١٥٥]، ولأنَّ البحث العلميّ والفلسفيّ حول الألسن على الدّوام ما هو إلا إنتاج ما يُسمَّى باللُّغة الواصفة، صار قياس وضع الأنحاء للألسن وعلومها لا يتمّ إلا في ظلّ "لغة واصفة"[١٥٦]، بل إنَّها من نتائج العلوم أنفسها حين يتمّ التّعبير عنها ضمن صياغات سيميائيّة قوامها القدرة على امتلاك لغة واصفة بإمكانها أن تمتد إلى جميع الأنساق السِّيميائيَّة الدّالة لكي تسهم في وضع بعض الحلول لمشكلاتها العلميَّة وفق الأرغانون السِّيميائيّ الذي يفترض بداهة إعادة تجديد المنطق وتخصيب شبكته المفهوميَّة وآليّاته الإجرائيَّة[١٥٧].

ولا ريبَ في أنَّ كلّ هذا البناء؛ من أجل تشكيل لغة علميَّة جديدة تقوم على أسس من منطق الاستكشاف والإبداع في المعرفة العلميَّة، إنَّما يكون مداره على قيم من المنهج وإمكاناته، ولأنَّ الأمر

كذلك في تكوين معرفيّ نافذ في الوصف ومن أجله، اضطلعت السِّيميائيّات بهذه المهمَّة في نظر "موريس" الذي نسب إليها وظيفة مزدوجة كونها تتمتع بأهمِّيَّة مركزيَّة في القيام بتوحيد العلوم. فبما أنَّ كلّ معرفة علميَّة لا يمكن التَّعبير عن نتائجها إلا بالعلامات، وكونها: "السِّيميائيّات" في جوهرها لغة قادرة على وصف كلّ الأنساق السِّيميائيَّة الدَّالة، التي تستطيع أن تقدِّم حلولاً للأشكال التَّعبيريَّة للخطاب العلميّ(١٥٨).

ليس غريباً بعد هذا أن يقرأ الدّارسون ما سبب انكباب فلاسفة التَّحليل على دراسة اللُّغة من منظور فلسفيّ ينطلق من ضرورة استعمال لغة اصطناعيَّة جديدة تكون قواعدها واضحة ومحدّدة أكثر ممّا هي عليه قواعد اللُّغة الطبيعيَّة، وهم في ذلك يتمثّلون "اللُّغة الواصفة" التي يصطنعها العلم الحديث، ويسعون إلى بيان مورفولوجيَّة اللُّغة الاصطناعيَّة وتركيبها ودلالتها المخصوصة(١٥٩)، بوصفها ـ "اللُّغة الواصفة" ـ إنجازاً سيميائيّاً قابلاً لأن يكون منظومة من الأنساق والقضايا، تتجاوز إطار اللّغات الطبيعيَّة ويتمد إلى ترتيبها على أُسس نظريَّة عامَّة(١٦٠).

وأقول: إذا كانت "اللُّغة الواصفة" بهذا المستوى من العطاء المعرفيّ بما يشترك فيها من الأجهزة المعرفيَّة وموضوعات العلوم المختلفة، ناهيك بمناهجها المتعدِّدة، فهل يشكِّل هذا النَّسق اللُّغويّ الجامع لها مبدأً عامّاً في التَّوصيف البيانيّ والإجرائيّ، يمكن الاعتماد عليه، والحكم على أساسه؟.

يبدو من قراءة إشكاليّات "اللُّغة الواصفة" بداهة أنَّها تساعد تلك العلوم في الحديث عن نفسها. إذ يلجأ إلى هذه الوظيفة المتنوّعة الاستعمالات، والتَّعليقات؛ لتحقيق مختلف عمليّات الاتصال. فضلاً عن كونها تجسّد مسؤوليَّة كبرى تخصّ اللُّغة العامّة، التي تضبط كلّ اللُّغات، وتعيد بشكلٍ دقيق تنظيم وسائل التَّعبير(١٦١).

وأمَّا عن الوظائف وما يمكن أن تؤدّيه أنساق "اللُّغة الواصفة"، فيمكن القول فيه إنَّ قراءة ما تحتله "اللُّغة الواصفة" من أهمِّيَّة كبرى على المستوى المعرفيّ في الفكر العالميّ المعاصر. جرت عليه قراءات أنتجت أسساً ومبادئ تكوينيَّة ونقديَّة يمكن أن تتجلَّى خلاصتها فيما يأتي(١٦٢):

١ـ تعالجُ اللُّغة الواصفة لغةً طبيعيّةً، تتوفّر على الأنموذج السيميائيّ نفسه، الذي تتوفّر عليه اللُّغة المنطقيَّة الواصفة، أو اللُّغة الرياضيَّة المماثلة. ويتمّ صياغة هذا بطريقة محكمة، تساعد على اشتقاق القضايا من بعضها، مثل النّحو التّوليديّ generative grammar، أو (التَّحويليّ transformational)، فإنَّه يعانق الأنموذج البنيويّ structuralism.

٢ـ تظهر اللُّغة الواصفة أحياناً كوظيفة للغةٍ طبيعيَّةٍ، تبتعد كثيراً عن النموذج المذكور. إنَّها تنتج نموذجاً للغة طبيعيَّة بصورة غامضة ومشتّتة، كما أنَّها تخلق استعمالاً واصفاً لا يجسّد لغة علميَّة عند اللّسانيين، وبعض المهتمين. لذلك فإنَّ اللُّغة الواصفة تشكّل مثل اللُّغة الطبيعيَّة موضوعاً مهمّاً يستحقّ الوصف.

٣ـ لا تظهرُ المشاكل المعقدة بالنّسبة للغة الواصفة على المستوى المعرفيّ، فلا تتجلّى بضمن ثنائيَّة: اللُّغة المنطقيَّة الواصفة/اللُّغة الرياضيَّة الواصفة؛ لأنَّ هذه الثنائيَّة تهتم بمعالجة لغة اصطناعية، ترتكز بدورها على لغة طبيعية أخرى، أمَّا اللغة الواصفة الصوريَّة، فإنَّها تهتمّ مباشرة باللُّغة الطبيعيَّة.

٤ـ منَ المؤكّد أنَّ حقيقة نسق لسانيّ معيّن وقوامه يكْمُنانِ في قواعد إعادة الكتابة، التي تتعرض لمجموعة من البنى الوجوديَّة، مع افتراض أنَّ لغة أخرى تستطيع توضيح هذه الحقيقة. إنَّها تقتصر عند البرهنة على وصف اللُّغة، التي تكون مناسبة لموضوعها.

٥ـ تعدُّ اللُّغة الواصفة المنطقيَّة واحدة من اللُّغات، التي لا تملك وحدة الموضوع، لأنَّها مشتّتة في مناهجها وقوانينها، كما أنَّ الموضوع يكون مؤسّساً، وليس طبيعيّاً. ولاسيّما التي توظّف في مجال اللسانيات الشكلية، تلك التي تهتم بدراسة موضوعات تنتمي إلى مجال اللغات الطبيعيَّة.

٦ـ تتعدَّد اللُّغة الواصفة بتعدّد اللُّغات، وكذلك النَّظريّات، التي تحاول كلّ واحدة منها التَّركيز على بعض الأوليات والمصطلحات الأصيلة، القليلة. لذلك لا بدّ من الاعتراف بوجود لغات واصفة متعدِّدة ينظر إليها طوراً بحسب تعدّد اللُّغات، وطوراً بحسب تعدُّد النَّظريات.

٧ـ إذا كانتِ اللُّغة الواصفة تريد أن تمثِّل عملاً كُليّاً، فإنَّها تحتاج مجموعة من القيم والسِّمات الكُلِّيَّة لبناء نسقها الخاص. لا يُعدُّ هذا الأمر مؤكّداً في مجال اللِّسانيات العامّة، التي لا تغطي الموضوع بأكمله.

٨ـ تَعْتَبِرُ اللُّغة الواصفة غير الصورية نفسها علميَّةً بالنسبة للغة المنطقيَّة الواصفة، وكذلك بالنسبة للسانيّات. إنَّ تحقّق اللُّغة الطبيعيَّة داخل لغة معيّنة يفرض تطبيق إجراءات تحليليَّة، مثل التي تستعملها اللُّغة الواصفة، التي تتحدّث عن العالم.

٩ـ تساعد معالجة اللُّغة الواصفة على تقديم وصف متطوّر لمختلف اللُّغات. إنَّها توسّع مجال العمل داخل الحقل اللِّسانيّ، من خلال إعادة تأويل البنى اللُّغويَّة.

١٠ـ لاَ يَسْتَطِيعُ أيُّ نسق لغويّ أن يصف نفسه، أو يبني لغة واصفة خاصَّة به، فعندما تُستعمل لغةٌ (ل١) لوصف نسق دالّ مختلف عنها؛ أيّ نسق غير لغويّ، أو لغة أخرى، فإنَّ

الموضوع المدروس، وأدوات الدِّراسة يتمايزان عن بعضهما، لكن عندما تصف لغة معيّنة نفسها، فإنَّ التَّعرُّف على الموضوع، وأدوات الدِّراسة يمثّلان وضعاً واحداً، مع عدم إغفال أنَّ اللُّغة (ل١) تضمّ نسقاً متميّزاً، يعبِّر عن نفسه بصورة ملموسة، كما يعبِّر أيضاً عن لغات أُخَر بصورة دائمة. إذ يُعدّ هذا النَّسق فرعيّاً، لأنَّه يحتوي على كلمات واصفة، وكلمات ذات دلالة ذاتيَّة.

ومن هنا نصادق قراءة "باشلار" في طرحه من كون "اللُّغة العلميَّة لغة مُحْدَثَة"، وأنَّها عبارة عن "لغة العلوم"، وهي لغة مفارقة للغة العادية، لغة تقوم على منهجيَّة معرفيَّة خاصّة، يقول: "اللُّغة العلمية في مبدئها لغة محدثة. لكي يجد المرء آذاناً صاغية [كذا] داخل المدينة العلميَّة، ينبغي أن يتكلَّم علميّاً لغة العلوم، بترجمة الفاظ اللُّغة العادية ونقلها إلى اللُّغة العلميَّة... إنَّ لغة العلم تنطوي على عدد من الألفاظ كثير منها يُكتب بين مزدوجتين... من شأن هذا الوضع أن يكشف إحدى السِّمات النوعيَّة للوعي العلميّ. فهذا الوعي يُفصح عن وعي منهجيّ، إنَّ اللَّفظ عندما يُوضَع بين مزدوجتين... يأخذ فوق اللُّغة العادية نغمة علميَّة"(١٦٣).

ثُمَّ يقول؛ مؤكِّداً: "ما أن يُوضَع لفظ من ألفاظ اللُّغة العادية بين مزدوجتين، حتَّى يكشف عن تغيّر في منهج معرفة تتعلَّق بميدان جديد للتجربة. وبإمكاننا أن نذهب حتَّى القول من جهة نظر الباحث الإبستمولوجي إنَّ هذا اللَّفظ علامة على قطيعة وانفصال في المعنى، وإصلاح للمعرفة"(١٦٤).

مع التَّنبيه أنَّ هذه المصادقة وقراءة المخالفة لا تعني فاعليتها وتصوّر الإمكان، إلا بالتَّسليم بما طرحه "فريجه"، و"ج. هيبوليت"، وهو ما يُفهم من كلامهما، فالأوَّل، ينفي صلاحيَّة "اللُّغة الطبيعيَّة للاستعمال العلميّ"، مع اعترافه بحاجة العلوم المجرّدة إليها، حين يقول: "تجد العلوم المجرَّدة نفسها، يوماً بعد يومٍ، في أمسّ الحاجة إلى أداة تعبير تمكّنها في الوقت ذاته، من تفادي أخطاء التَّفسير وتجنّب أغاليط البرهان. هذه الأغاليط وتلك الأخطاء راجعة إلى عيوب اللُّغة وحاجتها إلى الكمال..."(١٦٥).

وأمَّا "هيبوليت"، فيسلِّم بأنَّ اللُّغة الطبيعيَّة تنطوي على إلتباس، وهو الأمر الذي يتقضي إيجاد لغات صناعيَّة، ولكنَّه استدرك حين وجد أنَّ هذه اللُّغات قد تنتهي إلى الانتقال اللامتناهيّ، قال: "كلنا يعلم ما تنطوي عليه اللُّغة الطبيعيَّة التي نتكلّمها من التباس وعدم تحديد، لذلك فإنَّ الناس دأبوا باستمرار على درء هذا الفساد. وقد أدَّى بهم التَّفكير في اللُّغة إلى تصوُّر لغة أكثر نقاءً. وليست الرياضيات شيئاً آخر غير هذا"(١٦٦)، وهو في تحديد ذلك، يقول: "يتعلَّق الأمر بوضع علامات تكون جميعها وحيدة المعنى، وترتبط وفق علائق تخضع لقواعد مضبوطة. وهكذا فبإمكاننا بناء لغات صناعيَّة مثلما تبني الرياضيات منظوماتها الصّوريَّة. نحدّد الشَّفرة التي تعيِّن هاته العلامات وقواعد

استعمالها، إلا أنّنا سنحدّدها بواسطة أكثر قوة، أي: بميتا ـ لغة، يمكن أن تكون هي بدورها خاضعة لقواعد، وهكذا فربما أدى بنا الأمر إلى الانتقال اللامتناهي من لغة إلى ميتا ـ لغة"[١٦٧].

ولهذا فضَّل العودة إلى اللُّغة الطبيعيَّة: لغة الكلام اليوميّ، موافقاً فيها منظور "هيلمسليف"، ليقول: "في الواقع لا بدَّ من العودة إلى اللُّغة الطبيعيَّة، أي: اللُّغة التي نتكلّمها على الدَّوام، اللُّغة اليومية التي لجميع اللُّغات الأخرى أن تنتقل إليها، دون أن تنتقل هي إلى أيّ من اللُّغات الصِّناعيَّة، على هذا النَّحو، يمكننا تحديد اللُّغة اليوميَّة مع هيلمسليف "تعني باللُّغة اليومية تلك اللُّغة التي يمكن لجميع اللُّغات الأخرى أن تنتقل إليها (مثل الفرنسية والانجليزية والألمانية إلخ). فكل لغة شطرنج يمكن أن تترجم وتصاغ في لغة يومية، لكن العكس غير صحيح"[١٦٨].

والسَّبب في تصوّره، يعود إلى أنَّ "ما يمكن أن يميز اللُّغة اليوميَّة عن اللُّغات الأخرى (كلغة الرياضي أو الكيميائي) هو كونها لم توضع استجابة لغايات جزئيَّة معيَّنة، وإنَّما كونها قادرة أن تستجيب لجميع الغايات. عن طريق اللُّغة اليوميَّة، يمكننا أن نعبِّر عن أيّ شيء عند الحاجة. وحتَّى [كذا] قطع الموسيقى يمكن أن تُترجَم إلى اللُّغة اليوميَّة، لكن العكس ليس صحيحاً"[١٦٩].

وبهذا ينتهي إلى نتيجة مهمَّة محورها يتماهى واللُّغة الطبيعيَّة، وقراره يفيد أنَّ "اللُّغة اليوميَّة هي ميتا ـ لغة لجميع اللُّغات التي تضعها انطلاقاً منها عن طريق قواعد معيَّنة. أضف إلى ذلك أنَّها ميتا ـ لغة ذاتها. إنَّها تتكلَّم وتتكلَّم حول كلامها، إذا كان العلم لغة جيدة الصُّنع، فإنَّ لجميع العلوم لغتها الخاصّة، وهي ترجع جميعها إلى اللُّغة اليوميَّة كمصدر ونقطة انطلاق. فهاته اللُّغة منها ننطلق وإليها نعود"[١٧٠].

ما الذي تسعى إليه مقولات "اللُّغة الواصفة" إذن؟ ولماذا؟ وما الغرض والقصد؟.

إنَّها تسعى إلى صياغة وتكوين معرفيّ عن الأشياء تلك التي تمثّلها مرةً، ثُمَّ تعمل على أن يكون موضوعها حاضراً في جهاز نظريّ فكراً، يمكن أن يكون، وأن يُعْتَمَل سنداً في حكم ما على نظائر ومتشابهات، وهي بقدر ما تكون فيه قريبةً من الأشياء الواقعيَّة أوَّلاً، تكوْن فكرة ومفهوماً عنها في التَّوصيف الجدليّ ثانياً، وهل يخرج هذا من دائرة اللُّغة نفسها؟، إنَّها اللُّغة نفسها، ولكنَّها لغة ثانية تتحدَّث عن ذاتها فيها.

وأقول: لعلَّ "النَّصّ الواصف"، وهو في سياقٍ يحاكي من أوصاف وصف لغةٍ، لا يلتمس من "اللُّغة الواصفة" الاعتذار حيث أخذت الأخيرة من مساحات النَّظر، ومسافات القراءة أكثر من مقولات "النَّصّ الواصف" أنفسها، والسَّبب أنَّ الأخير هو الراعي لتكوين فلسفة من "اللُّغة الواصفة"، وهو الحقل الذي تشتغل فيه موضوعاتها المعرفيَّة نظراً وإجراءاً في المبدأ والمعاد.

الوصف الثالث: في محوريَّة الفهم والشَّرح/التَّفسير:

من ثنائيَّة: الفَهْم والتَّفسير ـ فعلا التَّأويل/الهرمنيوطيقيا(١٧١*) ـ إلى جامعيَّة النَّصّ الواصف:

لا ريبَ في أنَّ جدل التَّصوُّرات لا ينفعل متسنّناً، فضلاً عن إفضائه إلى نتائج ما إلا بقيم من التَّساؤلات، فقد ينفلق السُّؤال نفسه في وعي القارئ، ويقذف ذاته في فعلٍ تظهر فيه سماته عند عدم الفهم وسوئه، فيأتي ضوءٌ من تفسير وشرح، يُفصح عن إبانةِ ما كان مظلماً، ويبدد ما كان غامضاً، ويتضح مطلوبٌ لساعٍ.

وهل تنفكّ إشكاليّات الافتراض والمرجعيَّات السّابقة هذه التي تتعيَّن بالسُّؤال وإمكاناته، بوصفه الإبستيميّ الجدليّ: عدم معرفة/فهم(١٧٢*)، عن إشكاليَّات الإجابات اللاحقة عنه ونتائجها في انفتاحها بالقراءة والتَّفسير لمعاني النَّصّ ودلالاته؟، ومن ثمَّة كيفَ يمكن أن يُفهمَ ذلك؟، وعلى أيّ من الأنحاء؟، وبأيّ وسائط وأنظمة؟، وما تلك العوالم والمرجعيَّات؟، وإذا وصل القارئ منها إلى تعيين، فما الهدف والغرض؟، ومن هو ذلك القارئ الذي يقف على ملاك النَّصّ وامتلاكه بعد "الاستقلال الدَّلاليّ" له، ثُمَّ استيعابه، نهايةً إلى فعله؟.

أريدُ، هنا، وقد اقتبست ضمناً ممّا يليه، أنْ أقف وقفة يسيرة على ما قُدِّمَ من جدليَّة الفهم والشَّرح/التَّفسير، بوصفهما المحرِّك الفاعل لميكانيزم القراءة التَّأويليَّة، و"الهرمنيوطيقيَّة"، لنقاربها وفاعليَّة النَّصّ الواصف، وذلك على نحو ما يأتي:

ـ القراءة الأولى: عوالم النَّصّ في موضوعه الإنسانيّ، وانفتاح القراءة التَّأويليَّة:

يؤسِّس "بول ريكور" انطلاقات قراءته في مفهوم التَّأويليَّة "من النَّصّ إلى الفعل" ونظريَّة "التَّأويل ــ الخطاب وفائض المعنى"، على جدل من ثنائيَّات تقابليَّة محوريَّة، يتّخذ من إشكاليّاتها طرائق لأفعال القراءة الفاعلة، في ضوء نظريَّة النَّصّ والهرمنيوطيقا، قائمة على افتراض ظاهراتي مسبق(١٧٣*)، وهذه الثُّنائيّات الجدليَّة، هي: الرِّسالة والحوار، والمتكلِّم والسّامع، والنَّصّ والخطاب، والقراءة الكتابة، والواقعة والمعنى، ومعنى النَّاطق، ومعنى النَّطق، ومغزى النَّصّ والإحالة، وحدث التَّكلُّم والمعنى، إنَّها عموماً قراءة لما في خصائص الأنظمة التَّواصليَّة، وما فيها من قيم الاختلاف وتباعد الأجناس.

ولكي يفضي "ريكور" بهذا الجدل إلى نتائج ما يطمح إليه، يطرح جملة من التَّساؤلات تشكّل عتبات لحلّ إشكاليَّة الفراغ في الحلقة الهرمنيوطيقيَّة، يقول: "بجدل التَّفسير والفهم، أودّ أن أقدّم لنظريتي في التَّأويل تحليلاً للكتابة يكون نظيراً لتحليل النَّصّ، بوصفه عملاً من أعمال الخطاب، وما دام فعل القراءة يشكِّل نظيراً لفعل الكتابة، فإنَّ جدل الواقعة والمعنى، الذي يشكِّل جوهر بنية

الخطـاب،... يولّـد جـدلاً ملازمـاً لـه فـي القـراءة بـين الفهم أو الاسـتيعاب... والتَّفسـير. ودون محاولـة فرض مطابقة آليَّة بين البنية الدَّاخليَّة للنصّ بوصفه خطاب الكاتب، وعمليَّـة التَّأويل بوصـفها خطـاب القـارئ،... فقد يُقـال علـى نحـو تمهيديّ فـي الأقـلّ: إنَّ الفهم يمثِّل للقـراءة مـا تمثّلـه واقعـة الخطـاب بالنِّسبة لنطـق الخطـاب، وإنَّ التَّفسـير للقـراءة يمثّـل مـا يمثِّلـه الاسـتقلال النَّصِّـيّ واللَّفظـيّ للمعنـى الموضوعيّ للخطاب. ولذلك تتطابق البنية الجدليَّة للقراءة مع البنية الجدليَّة للخطاب"[١٧٤].

لقد بنـى "ريكـور" جدليَّة تحليل الخطـاب/النَّصّ بـجدليَّة "الفهم والتَّفسير" علـى جملـة مـن قـراءات تبنَّى شأنها في التَّوصيف اللاحق في قراءة التَّأويل، منطلقاً من "تعريف العمل التالي للهرمينوطيقا: إنَّ الهرمينوطيقا هي نظريَّة عمليَّات الفهم في علاقتها مع تفسير النُّصوص"[١٧٥].

ومن أجـل "تحضـير الانتقال مـن مسـألة النَّصّ إلـى مسـألة العالم الـذي يفتحـه"[١٧٦]، دلاليّـاً، وقراءة مـا يعقب ذلك بفاعليَّـة من القراءة المعقَّدة ورصد المرجعيّـات، عقد النَّظـر علـى مبدأ الافتـراق والمباعدة بين جدل الأنظمـة الواصفة في حدود من التَّفاعليَّة والتَّكامل، متّخذاً من إشكاليَّة التَّمييز بـين اللُّغة والكـلام قراءةً مغايرة لنظر اللِّسـانيّ، يقـول: "إنَّ الخطـاب هو الواقعـة اللُّغويَّـة. وبالنِّسبة للسـانيّات مطبقة على الأنظمـة، يعبِّر البُعد الزّمنيّ لهذه الواقعة عن الضَّعف المعرفيّ (الابستمولوجي) للسـانيّات الكـلام parole. فالوقـائع تختفي بينمـا تبقـى الأنظمـة. لذلك فالحركـة الأولـى لعلم دلالـة الخطـاب لا بدّ أن تكون معالجـة هذا الضَّعف المعرفيّ للكـلام النـابع من الطبيعـة المنفلتـة للواقعـة قياسـاً بثبـات النِّظـام بربطـه بالأسـبقيَّة الأنطولوجيَّـة (الوجوديَّـة) للخطـاب الناتجـة عـن فعليَّـة الواقعـة فـي مقابـل افتراضـيَّة النِّظام"[١٧٧].

إنَّ مـا أولاه "ريكور" من أهمِّيَّة للخطاب ومبانيه النَّظريَّة، بوصفه حدثاً، جعل منه منطلقاً نقدياً لكلّ أبعاد النَّظريَّة التَّأويليَّة لديه[١٧٨]، ولذلك جاءت مقدِّماته ناظمة لتوصيف خصـائص كلّ من اللُّغة والخطــاب؛ إعــداداً لتفسـير فعـل القــراءة ومهمّتهــا، فكانــت "المعــايير النَّصِّــيَّة"[١٧٩]، و"ســمات الخطاب"[١٨٠]، ومفارقة الأخير للغة والنِّظام الافتراضيّ، تمهيداً لما يسوغ أنْ أسِمَهُ: نحو قراءة النَّصّ وتشكيل المرجعيَّات. فمـا الخطـاب؟ ومـا النَّصّ إذن؟، ومـاذا يحدث إنْ تحوَّل الكـلام، أو الخطـاب إلـى الكتابة، أو النَّصّ؟. أسئلة طرحها "ريكور" لتؤلِّف مجمل مرجعيّاته التَّنفيذيَّة في تحليل الخطـاب، وفهم النَّصّ، وتفسيره، ولكـي تتّضـح معـالم تلـك الإشـكاليّات قدَّم جملـة مـن إجابـاتٍ فـي ضـوء جدليّاتها المسبقة.

يقدِّم "ريكور" سمات الخطـاب بوحدتـه الصُّغرى "وهي الجملة" بعد مخالفة وتعيين، وعلى أسـاس تالٍ من قراءة وتصوُّر لنظريَّـة "أفعال الكلام Speech Act"، فـي ضـوء قراءات "بيرس"، و"سيرل"،

للفعل التَّعبيري والتَّمريري، والتَّأثيريّ[١٨١]، ليقول، أعني "ريكور"، مجيباً عن تساؤله: "ما هو الخطاب؟" مشكّلا به نظريةً كاملة في الخطاب على نحو مفارقة، بالقول: "لن نطلب الجواب من المناطقة، ولا حتَّى من المدافعين عن التَّحليل اللِّساني، بل من علماء اللُّغة. الخطاب هو الرأي المخالف لما يسمّيه هؤلاء بالنَّسق أو النَّظام اللِّسانيّ. الخطاب يعني حدث الكلام. إذا كانت العلامة الصَّوتيَّة أو المعجميَّة هي وحدة أساس الكلام، فإنَّ الجملة هي وحدة أساس الخطاب. لذا كانت لسانيّات الجملة سناداً للخطاب باعتباره حدثاً"[١٨٢].

ولعلَّه، في مكان آخر، كان أكثر صراحة وبياناً ممّا تقدَّم، عندما وجَّه جدل العلاقة بين الحدث والدَّلالة في الخطاب "الواقعة، والمعنى"، قال: "يُعتبر الخطاب نفسه، من جهة، بمثابة حدث: أي أنَّ شيئاً ما يحدث عندما يتكلّم أحدنا. وتفرض هذه النظرية، نظريَّة الخطاب كحدث، نفسها بمجرّد ما نأخذ بعين الاعتبار العبور من لسانيّات الكلام أو الرّموز، إلى لسانيّات الخطاب أو الإرساليَّة. ومصدر التَّمييز، كما نعلم، هو فردنان دوسوسير، ولوي يلمسليف. يميز الأوَّل بين الـ "اللُّغة"، والـ "الكلام"، والثاني بين الـ "تصوّر"، والـ "استعمال". من هذه الثّنائيَّة تستنتج نظريَّة الخطاب كلّ خلاصاتها الإبستمولوجيَّة،..."[١٨٣].

وحدَّد على هذا الأساس الوصفيّ، النَّقديّ، المرجعيّ: "الخطاب كحدث"، أربعَ سماتٍ؛ إجراءَ مفارقةٍ بينه وبين اللُّغة ونظامها النَّسقيّ الافتراضيّ، على نحو ما يأتي[١٨٤]:

١ـ الخطاب له تحقّقٌ دوماً زمنيّاً وفي الحاضر، وهو يختلف عن نظام اللُّغة التَّقديريّ الغريب عن الزمن. وهو ما يسمّيه إميل بنفنيست "إلحاح الخطاب". واللُّغة على هذا الأساس لا وجود لها، وإنَّما تتجلَّى في الخطاب، بوصفه حدثاً، ولهذا كان الكلام هو الفعل التَّنفيذيّ، أصواتاً، وكلمات وتراكيب، للغة[١٨٥*]. إنَّ اللُّغة عاجزة عن نقل التَّجربة النَّفسيَّة التي هي ليست هي عندما تنقل من ذات إلى أخرى، وعلى الرّغم من ذلك، فهي ـ أي: اللُّغة ـ معجزة؛ لأنَّها تنقل لنا تصوّراً دلالياً عن ذلك بالعلامات وأنساقها الكلاميَّة. ٢ـ لا تتطلَّب اللُّغة أيّ ذات ـ بذلك المعنى الذي ينطبق فيه سؤال "مَن يتكلّم؟" على هذا المستوى ــ بينما يحيل الخطاب على متكلِّمه بفضل مجموعة من أدوات الوصل كالضّمائر مثلاً. لذا نقول: إنَّ "إلحاح الخطاب" مرجعيّ ذاتيّ، وعلى ذلك، فإنَّ اللُّغة لا تتكلّم وإنَّما النّاس هم من يتكلّمون اللُّغة. ٣ـ إذا كانت علامات اللُّغة تحيل فحسب على علامات أُخَر داخل النِّظام اللُّغويّ، فإنَّها بذلك تستغني عن العالم، كما تستغني عن الزَّمنيَّة والذاتيَّة، فهي بذلك مغلقة على نفسها، كلمات تحيل على كلمات، في حين يكون الخطاب دائماً على صلة بموضوع ما، ويحيل على عالم يتوخَّى وصفه، والتَّعبير عنه وتشخيصه، ولهذا لا تتحقّق وظيفة الكلام الرمزية والتَّعبيريَّة إلا في

الخطاب وأفعاله.   ٤. لا تُعدّ اللُّغة سوى شرط للتواصل الذي تقدِّم له أنساقاً ما. في حين لا يتمّ تبادل الإرساليّات إلا في الخطاب. وبهذا المعنى لا يملك الخطاب لوحده عالماً فحسب. بل آخر، مخاطب إليه يتوجَّه، ويتفاعل معه.

يقول "ريكور" "كلّ هذه السّمات مجتمعة تجعل من الخطاب حدثاً". مستدركاً، "ومن الملحوظ أنَّها لا تظهر إلا في حركة إنجاز الكلام في الخطاب، في تفعيل قدرتنا اللِّسانيَّة في الإنجاز"(١٨٦). ومن هذا الباب يمكن النفاذ إلى اللُّغة وعالمها الذي يشكّله عالم الإنسان(١٨٧).

ومن أجل تعيين خصائص الأنظمة التَّعبيريَّة والرَّمزيَّة وما في تحوّلاتها؛ قراءةَ نتائجها وآثارها، أجرى موازنة للنظر "إلى الطَّريقة التي تُنْجَز بها هذه السِّمات في الكلام الشفويّ والكلام المكتوب"(١٨٨)؛ ولم يفته إدراك الحديث عن القطب الثاني والمؤسِّس للخطاب، وهو ما يتعلَّق بدلالته ومعناه؛ ولاسيّما إذا كانت التَّصوّرات معقودة بسببٍ من أنَّ "التَّوتُّر بين القطبين يولد إنتاجُ الخطاب كأثر، جدليَّةُ الكلام والكتابة، وكلُّ سماتِ النَّصّ الأخرى..."(١٨٩).

ومن هنا تولَّدت لديه إشكاليَّة أخرى تتعلَّق بثنائيَّة النَّصّ والخطاب؛ ومع مدار توصيف النَّصّ وتشخيص معالمه، يتجلَّى فعل القراءة وما يكشفه التَّحوُّل من أسرار، حين الانتقال من التَّكلُّم إلى الكتابة، ومن الخطاب إلى النَّصّ، يقول يكور: "لنسمّ نصّاً كلّ خطاب ثبتتْه الكتابة، تبعاً لهذا التَّعريف، يكون التَّثبيت بالكتابة مؤسّساً للنصّ نفسه"(١٩٠).

ولتوضيح المقابلة بين الكلام والكتابة، وتحوُّل الكلام نصّاً، يقول "ريكور": "نعني بالكلام، مع فردينان دو سوسير، تحقُّقَ اللُّغة في حدث خطاب ما، إنتاجَ خطاب فريد من طرف متكلّم مفرد. فإنَّ كلّ نصّ إذن هو بالنِّسبة للغة في نفس موقع إنجاز الكلام. وتُعتبر الكتابةُ، علاوة على ذلك، بصفتها مؤسَّسة، تالية للكلام الذي يبدو أنَّها منذورة لتثبيت كلّ تلفُّظاته التي لاحت شفويّاً، بشكل خطّي موجز..."(١٩١). والسَّبب في ذلك، هو طبيعة "الخطاب كحدث"، وذلك لأنَّه يظهر ويختفي... ما نريد تثبيته هو ما يختفي. وإذا كان بوسعنا أن نقول تعميماً، إنَّنا نثبت اللُّغة ــ تدوين الحروف الأبجدية، المعجم، التَّركيب ــ فذلك لتدوين الخطاب؛ لأنَّه الوحيد الذي يقتضي أن يثبت، وحده يتطلّب ذلك لأنَّه يختفي"(١٩٢)؛ ولأنَّه "وحده يوجد في لحظة زمنيَّة وحاضرة من الخطاب، فقد يفلت كلاماً ويثبت كتابةً"(١٩٣)، الكتابة إذن، تنقذ الخطاب من الضَّياع والدَّمار، وتجعل "منه وثيقة رهن إشارة الذَّاكرة الفرديَّة والجماعيَّة"(١٩٤)، وليس إلى هذا؛ "صوناً له من الدَّمار وحسب، بل هو [أي: الخطاب] ينزع إليها بعمق في وظيفته الاتصاليَّة"(١٩٥).

ويمضي "ريكور" يؤكّد ذلك، موازناً، يقول: "لنعد إلى تعريفنا بأنَّ النَّصّ خطاب أثبتته الكتابة. ما أثبت بالكتابة إذن خطاب كان بإمكاننا أن نقوله، بالتأكيد، لكنّنا نكتبه بالضّبط لأنّنا لا نقوله. التثبيت بالكتابة يحلّ محلّ الكلام، أي حيثما كان بإمكان الكلام أن يولد. يمكن لنا إذن أن نتساءل إن لم يكن النص نصاً حقاً عندما لا ينحصر في تسجيل كلام سابق، بل عندما يدوّن مباشرة بالحروف ما يريد الخطاب قوله"(١٩٦). إلى أن يقول: "الكتابة إنجاز شبيه بالكلام موازٍ للكلام، إنجاز يحتل مكانه ويحجبه. لذا قلنا إنَّ ما يأتي إلى الكتابة، هو الخطاب، بصفته نيَّة في القول، وأن الكتابة تسجيل مباشر لتلك النِّيَّة، حتَّى وإن كانت الكتابة قد بدأت، تاريخيّاً ونفسيّاً، بتسجيل علامات الكلام تخطيطاً. وتحرّر الكتابة هذا، الذي يضعها موضع الكلام هو شهادة ميلاد النَّصّ"(١٩٧).

يولد النَّصّ إذن، في "التَّثبيت"، ليكون خطاباً مترجماً مقيداً. ولكن ما الذي تثبّته الكتابة وتترجمه؛ كي يكون الخطاب نصّاً، في تصوّر "ريكور"؟، وما الذي سيجري حين يتحوَّل الخطاب من علاقة: التَّكلُّم واستماع إلى علاقة: القراءة والكتابة؟، هل حالة الكتابة ـ النَّصّ هي حالة التَّحاور ـ المحادثة؟، وما الذي سيعتري "المنطوق نفسه عندما يدوَّن مباشرة عوض من أن يلفظ"(١٩٨)، أ "تمثّل الكتابة قضية تغيير للوسط فقط، حيث تحلّ علامات مادية خارج جسم المتكلّم محلّ صوته ووجهه وإيمائه"(١٩٩)؟.

يرى "ريكور" أنَّ ما تثبّته الكتابة هو المعنى القوليّ، وليس الحدث أو الواقعة الكلاميَّة، أي: "شخص ما يتكلّم"(٢٠٠)، صحيح "يشكّل التَّدوين... مصير الخطاب. لكن، ماذا تثبت الكتابة في الواقع؟ ليس حدث القول، بل "ما يقول" الكلام، إذا كنا نعني بـ"ما يقول" الكلام التَّجسيد القصديّ الذي يمثّل تطلع الخطاب نفسه... باختصار، إنَّ ما نكتبه، ما نسجِّله، هو محتوى فكر القول. هو دلالة حدث الكلام، لا الحدث بوصفه حدثاً"(٢٠١)، وواقعةً.

بعبارة أخرى أنَّ ما يتمّ تسجيله هو المعنى والدَّلالة، ومفهوم المعنى يتيح "تأويلين يعكسان الجدل الرئيس بين الواقعة والمعنى. إذ يعني المعنى ما يعنيه المتكلّم، أي ما يقصد أن يقوله، وما تعنيه الجملة، أي ما ينتج عن الاقتران بين وظيفة تحديد الهوية ووظيفة الإسناد. المعنى بعبارة أخرى، تعقّل صوري وتعقّل مضموني خالص معاً"(٢٠٢).

وهنا تبرز مشكلة "التَّسطير"، "الكتابة"، فهي بقدر ما تحافظ على الخطاب من الانفلات والضّياع، تكون مشكلة فيه، ذلك أنَّ التَّحوُّل من الكلام إلى الكتابة، ينتج مشكلات، ومفارقات، لا لتتفق، بل لتتباعد وتفترق، بحيث يكون الأخير مفهوماً وطريقة في الإدراك والتّأويل، بسبب الانفتاح النَّصِّيّ، والاختلاف في أنظمة التَّعبير، إذ "تبدو الكتابة، للوهلة الأولى، أنَّها لا تدخل سوى عامل

خارجيّ ومـاديّ صـرف، هو: التَّثبيت، الذي يجعل حدث الخطـاب في منـأى عن الدّمار. وفي الواقع، ليس التَّثبيت سوى ظـاهرٍ خارجيّ لمشكلة أهمّ تطال كلّ خصـائص الخطـاب... فالكتابة، في البدايـة، تجعل النَّصّ مستقّلاً عن قصد الكاتب. وما يدلّ عليه النَّصّ لا يتطابق مع من أراد قوله"(٢٠٣).

ولهذا استند "ريكور"، إلى مخطّط "جاكوبسن"، فـي قراءة أخرى لـه، مقترحاً اختبـارَ مـا يلحـق الخطـاب مـن تشويهات وتحـوّلات حين العبـور مـن الكـلام إلـى الكتابـة(٢٠٤)، وقد نـتج لـه عن ذلـك مـا يمكن أن نلخّصه بهذه العتبات التالية:

١ــ نسف العمليَّة التَّحاوريَّة:

بدهي أنَّ "مـن أوجـه الخطـاب المهمَّـة أنَّـه يتوجَّـه إلـى شـخص مـا. فهنـاك متكلِّم آخر هو متلقّي الخطـاب. وحضـور هذين الاثنـين: المتكلِّم والمستمع، هـو الـذي يشـكّل اللُّغـة بمـا هـي اتصـال... وكمـا يقـول أفلاطـون يشـكّل الحـوار بنيـة جوهريَّـة فـي الخطـاب. ويحـتفظ السّـؤال والجـواب بحركـة الكـلام وفاعليتـه،..."(٢٠٥)، ومـا ذلـك إلا إمكـان فـي الخطـاب نفسـه، والموضـوع المشـترك والإحالـة عليـه فـي العالم الخارجيّ الذي تشترك فيه المحادثة: التكلم الاستماع. ناهيك بـالسِّياق، وإمكانـات الوصـف واللقـاء وجهـاً لوجـه، حين يتوجّـه المستمع إلى المتكلِّم بالسُّؤال، ليكون الجواب حاضـراً؛ دفعـاً لـلاحتمـال الدَّلاليّ، ودرءاً لسـوء الفهـم، الـذي لا تخلـو منـه عمليَّـة تخاطبيَّـة. يقـول ريكـور: "إنَّ الوظيفـة السِّـياقيَّة للخطـاب تتمثّـل فـي حجـب تعـدُّد المعـاني فـي الكلمـات، وتقلـيص الاسـتقطاب فـي أقـلّ عـدد ممكـن مـن التَّأويلات،... وبهذا المعنى بالضَّبط يقلّص الدَّور السِّياقيّ للحـوار ميدان سـوء الفهم حـول المحتـوى الخبريّ،..."(٢٠٦)، ليس إلى هذا فحسب، بل "يصـير الفهم بوصـفه معنـى أمراً متجانسـاً"(٢٠٧)؛ بسـبب من فاعليَّة المكملات.

بيد أنَّ التَّحـوُّل، أو العبـور من حالـة: الـتَّكلُّم ــ الاستماع، إلـى حالـة: الكتابـة ـ القـراءة، يهشـم السِّياق، ويغيِّر الخطـاب بطرائق مختلفة، فـ "أوَّل ارتبـاط يطرأ عليه التَّغيّر هو ارتبـاط الرِّسالة بـالمتكلِّم. وهذا التَّغيُّر هو في حقيقتـه أحد تغيرين متنـاظرين، يؤثّران في الموقـف التَّحـاوري ككـلّ. فالعلاقـة بـين الرسـالة والمـتكلِّم فـي إحـدى نهـايتي السلسـلة الاتصـاليَّة، والعلاقـة بـين الرِّسـالة والسّـامع فـي النّهايـة الأخـرى، يتحـوّلان معـاً تحـوّلاً عميقـاً حين يـتمّ اسـتبدال علاقـة المشـافهة وجهـاً لوجــه face-to-face بعلاقـة قراءة الكتابـة والأكثر تعقيداً، الناشئة عن التّسطير للخطـاب في حـروف مكتوبـة"(٢٠٨). يقـول "ريكـور": "لقد تمّ نسف الموقف الحـواري بالكامل. ولم تَعد علاقـة الكتابـة ــ القراءة حالـة خاصَّـة مـن حـالات علاقة التَكلُّم ـ الاستماع"(٢٠٩).

يُتبـــــع...

الهوامش والتَّعليقات:

(١*) ما زلتُ أتأمَّلُ، مندهشاً، جدليَّة: العدسة والقرص، تلك التي أشاهد محاورها وسيرورة خطابها التِّقني في ماكنة الحاسوب الحديثة، وتختلج في خلدي، حين الاستعمال، جملة من تساؤلات عن كيفيَّة عمل هذه العدسة وقدرتها في سوَّاقة القرص المُدمج؟، وكيف يُمغنط ذلك القرص، ويرمَّز بلغة خاصَّة سابقاً؟، وبأيِّ طريقة؟، وهلا كانت طرائق أخر؟، وعلى شرائح أخر، غير رقائق الألمنيوم مثلاً، في عمليَّة الاحتراق والتَّكوين، كالخشب مثلاً؟، ولماذا هذا التَّوصيف بالاندماج؟، وكيف تقرأ تلك العدسة هذه اللُّغة البرمجيَّة؟، وعن كيفيَّة دوران القرص، والمحرِّك الفاعل لحركة الدَّوران، وتفاعل حركته مع حركة العدسة اللاحقة للإشارات اللُّغويَّة الحاسوبيَّة التي نشرت نفسها على مدار القرص وفلكه؟، وعن سعته وذاكرته؟، وعن تراكم مخزونه للبيانات والمعلومات، وقرب ذلك وبعده من مركز النَّواة؟، ثُمَّ عن كيفيَّات إظهارها خارجاً على شاشة العرض، وبحسب عمليّات تفاعليَّة مبرمجة، وظيفتها التَّوسيط بين ما هو داخليّ وقارئ؛ لإنتاجه في عرض؟.

هل حان حين للجزم بيقين عن ممثلية ذلك بعمليَّة التَّفكير الإنسانيّ، وإن بدت أنَّها مشابهة له ميكانيكيّاً، فـ"الإنسانيّ"؟!! بداهةً أعمق بكثير، وشتان ما بين صانع ومصنوع!، ولكنِّي أقارب ما تقدَّم بمركَّب ثنائيّ، يدور على محور انفتاحيّ لا نهائيّ: ١. القراءة. و٢. الكتابة. وأمَّا المحور الفاعل، فهو ٣. الفكر.

في ظنّي أنَّ العدسة تمثِّل القراءة، وهذه لها فاعليّاتها وإجراءاتها المخصوصة، وهي أنساق معرفيَّة سابقة في التَّصوُّر على نحو ما يجري في العمليَّات الإدراكيَّة. والقرص يماثل نصّاً/كتاباً كان قد كُتِبَ وانتظم بطريقة ليست غريبة على عين القراءة/العدسة، بل يتفاعل معه وينهد إليه بالنَّظر. وأمَّا الديناميكيَّة المحرّكة لهذا القرص/الكتاب/المدوَّنة المعرفيَّة، فهي الفكر نفسه ذلك العالم اللامتناهي. والقراءة تلتقط، باصرةً، منه ما تشاء حين الفعل القرائيّ بحسب المرجعيَّات الثقافيَّة والمناهج المُعدّة، التي تماثل البرمجيَّات الأُخَر، وما في وظائفها التي يستطيع أن يقرأها الحاسوب/المتلقِّي، ويعمل على استيعابها بعمليّات إدراكيَّة واستدلاليَّة ووسائل مساعدة؛ لإنتاجها في قراءة ثانية تعمل على فكّ لغتها البرمجيَّة المشفَّرة، والبحث عن جذورها وسرّها المكنون، في ذلك القرص/النَّصّ.

تتوافق المقاربة إذن، في تصوُّريّ اليسير، بين عمليَّة التَّلقِّي: آليَّات القراءة الفاعلة، والنَّصّ المقصود، ليكون النِّهائيّ الإنتاجيّ نصّاً آخر مقروءاً، من فاعليَّة متكاملة، وجدل مستمرّ في وصف لواصف وموصوف.

(٢*) تتَّصف "**الخوارزميَّة**" بأنَّها مجموعة من الخطوات الرِّياضيَّة والمنطقيَّة المتسلسلة اللازمة لحلّ مشكلة ما. وسُمِّيت الخوارزميَّة بهذا الاسم نسبة إلى العالم أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي الذي ابتكرها في القرن التاسع الميلادي. وانتشرت الكلمة في اللغات اللاتينية والأوروبية هي «algorithm»، وقد كان معناها في الأصل يقتصر على خوارزميَّة لتراكيب ثلاثة فقط، وهي: التّسلسل، والاختيار، والتّكرار. **١ـ التَّسلسل:** وفيه تكون الخوارزميَّة عبارة عن مجموعة من التَّعليمات المتسلسلة، وهذه التعليمات قد تكون إمّا "بسيطة"، أو من النَّوعين التاليين. **٢ـ الاختيار:** قد تكون بعض المشاكل لا يمكن حلّها بتسلسل "بسيط" للتعليمات، وقد تحتاج إلى اختبار بعض الشّروط، وتنظر إلى نتيجة الاختبار، فإذا كانت النَّتيجة صحيحة تتبع مساراً يحوي تعليمات متسلسلة، وإذا كانت خاطئة تتبع مساراً آخر مختلفاً من التَّعليمات. هذه الطريقة هي ما تُسمَّى اتخاذ القرار أو الاختيار. **٣ـ التَّكرار:** عند حلّ بعض المشاكل لا بدّ من إعادة نفس تسلسل الخطوات بعدد من المرات. وهذا ما يُطلق عليه التَّكرار. وقد ثبت أنَّ استعمال هذه التَّراكيب الثلاثة يسهّل فهم الخوارزميَّة واكتشاف الأخطاء الواردة فيها وتغييرها. ينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرّة – الشبكة العالميَّة للمعلومات الانترنيت "internet": https://ar.wikipedia.org/wiki/.

أقول: ولعلَّها بهذا التَّوصيف والممارسة والإجراء، ابتداءً في الانطلاق من التَّركيب إلى التَّحليل، ومن التَّحليل إلى التَّركيب في ضوء معايير التَّسلسل والاختيار، لعلَّها تمثّل نسقاً من أنساق التَّحليل النَّصِّيّ، وما فيه من مبادئ الوصف اللِّسانيّ. إنَّها فلسفة لمنظومة أنظمة تدخل في كلّ شيء قابل للفهم والقراءة، فكيف بالنَّصّ إذن، وهو محلّ القراءة والتَّأمُّل، بل كيف بالقراءة نفسها، وهي محلّ توجيه النَّصّ في نظريَّة التَّلقِّي، لا على نحو يتماهى كلّ منهما، أعني: القراءة النَّصّ، في الآخر، بل في جدلٍ من توصيف التَّسابق والتَّضايف، فكلّ منهما يسبق الآخر، وكلّ منهما يضفي على الآخر من خصائص نفسه مرجعيَّةً وغايةً وهدفاً.

(٣*) الطِرْس: الصَّحيفة. ويُقال: هي التي مُحِيَت، ثُمّ كُتِبَتْ، أو الكتاب الذي مُحِيَ، ثُمَّ كُتِبَ، والجمع: أَطْراس، وطُرُوس. ينظر: لسان العرب، مادة (طرس): ٦/ ١٢١. وهنا أذكّرُ أنَّ "جيرار جينيت" المؤلِّف الفرنسيّ، قد استعمل هذا المعنى في أحد بحوثه، ذلك الموسوم "أطراس"، الأدب في الدّرجة الثانية"، بحسب ما صوّره مترجمه.

(٤*) ثمَّة دراسات ممنهجة في نظر مخصوص بالرَّصد مختلفة، وقفت عليها مؤخّراً، نهاية البحث أغلبه، وهي نافعة معرفيّاً في مجال النّقد الأدبيّ، منها: (النَّصّ الوصف، شرح أشعار الهذليين، أنموذجاً)، رسالة ماجستير، للطالبة: عفاف طريلي، تخصص الشعرية العربيَّة قسم الأدب العربيّ، جامعة الحاج لخضر باتنة، ٢٠١١م، و(الخطاب الواصف في مشروع النَّقد العربيّ المعاصر (سعيد يقطين) أنموذجاً)، أطروحة دكتوراه، للطالبة: ريمة برقراق. أدب عربيّ معاصر، الجزائر: ٢٠١٦. وكذلك (اللُّغة الواصفة في مؤلَّفات عبد الملك مرتاض النَّقديَّة كتابة نظريَّة اللُّغة العربيَّة . أنموذجاً)، رسالة ماجستير، للطالبة: عبير مزياني، أدب عربي، الجزائر: ٢٠١٦م. وبحوث في مجالات أُخر أيضاً، مثل: (وسائل إنتاج الدلالة في ضوء اللُّغة الواصفة . مقاربات في التحليل النحوي للنص، د. عمر عمروي، جامعة ابن خلدون . تيارات، دراسات لغوية، مجلة العلامة، العدد: ٥، ديسمبر، ٢٠١٧م). و(اللغة الواصفة في المقام الداخليّ لشرح ابن الأنباري للمفضليات. أ.د. محمد بن زاوي، أ. للوش وهيبة، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة الجزائر، مجلد: ٤٢، العدد: ٢.، ٢٠١٨م. وكذلك (اللغة الواصفة دراسة لسانية للخطاب القائم حول اللغة ـ جوزيت غاي دوبوف. ترجمة: د. عبد الجليل غزالة، مجلة الموقف الأدبيّ، اتحاد الكتاب العرب، سوريا، المجلد: ٣٢، العدد: ٣٨٦، ٢٠، يونيو/حزيران، ٢٠٠٣م). وكذا بحثه الموسوم: (حفريات في اللُّغة العربيَّة الواصفة ـ ١، ٢. أ. د. عبد الجليل أبو بكر غزالة)، على الشبكة العالمية للمعلومات "internet. عن "صحيفة اللّغة العربيَّة":

.https://www.arabiclanguageic.org/view_page.php?id=7475

(٥*) تصدرت جامعيَّة ما تشترك بها العلوم في وسيط يتجاوز الذوات، وهو اللُّغة، يقول "تودوروف": "إنَّ وحدة العلوم الإنسانيَّة لا تكمن في المناهج التي توسَّع فيها علم اللُّغة، والتي أخذ بتطبيقها في حقول أخرى، بقدر ما تكمن في الموضوع المشترك لهذه العلوم، ألا وهو اللُّغة،...". [اللُّغة والأدب، بضمن كتاب: اللُّغة والخطاب، بحوث مترجمة، سعيد الغانمي: ٤٢].

ولقد ينسجم ثمَّة معطى التَّوضيح والتَّواصف بما قدّمه "هانز جورج غادامير" أيضاً من قراءة عن فاعليَّة اللُّغة، وكونها المحدّد الموضوعيّ، والفعليّ للتأويل، وأساس سلطتها في فهم سياقه علاقات من اللُّغة والعقل، ليقول: "التَّفوّق النقديّ الذي ندّعيه على اللُّغة لا يتعلَّق بمواضعات التَّعبير اللَّفظيّ، بل بمواضعات المعنى الذي أصبح مترسّباً في اللُّغة. وهكذا، لا يقول ذلك التَّفوّق شيئاً عن الارتباط الرئيس بين الفهم واللُّغة. وهو، في الواقع، يؤكّد هذا الارتباط. ذلك لأنَّ النَّقد برمّته الذي يعلو على النزعة التَّخطيطيَّة لتعابيرنا من أجل الفهم يجد تعبيره في شكل اللُّغة. ومن هنا تحبط اللُّغة دائماً أيَّ

اعتراض على نطاق سلطتها. فشموليتها تجاري شموليَّة العقل. ويساهم الوعي التأويليّ فقط في ما يشكِّل العلاقة العامة بين اللُّغة والعقل. وإذا اشترك الفهم كلّه في علاقة ضروريَّة من التّماثل مع تأويله الممكن، وإذا لم تكن هناك قيود أساساً على الفهم، يجب، عندئذٍ، على الشكل اللَّفظيّ الذي يؤوِّل فيه هذا الفهم أن يحتوي ضمنه بعداً مطلقاً يتجاوز القيود كلّها. فاللُّغة هي لغة العقل نفسه". [الحقيقة والمنهج: ٥٢٥– ٥٢٦]، وليس له بدّ منها، لأنَّها التّجلي الكُلِّيّ له.

أقول: وهل يمكن ان تجتمع في منطق من السِّيميائيّات واللُّغة أعلاها صفةً وحركةً؟. إنَّها لكذلك في ضوء منهج قائم على دراسة العلامات والعلاقات، في ضوء خطاب بوصفه نصّاً، ولعلَّ الأخير هو السِّمة العليا في التّكوين الإنجازيّ وخصائص الكتابة؛ لأنَّ الكتابة هي القيّد الفاعل لعدم انفلات الوقائع والأفعال وعوالم الفكر، بل لعلَّها التَّجلّي الكامل للغة، في مخصوص نصّ يكون مشتركاً بوصفه موضوع العلوم، كما سنأتي عليه في قراءة "بول ريكور"، في خطاب كتابيه: "من النَّص إلى الفعل"، و"نظرية التأويل وفائض المعنى".

ويبدو لي أنَّ هذا ما ولَّد قراءة لـ"رولان بارت" حين أعطى الدور للكاتب، ليس على أساس ما "يقوم به، أو القيمة التي تُعطى له. ولكنَّه يتحدّد فقط بنوع من أنواع وعي الكلام وبهذا يكون كاتباً، أي عندما تُحدث اللُّغة له مشكلة، تجعله يغوص فيها إلى الأعماق، فلا يقف عندها أداة أو جمالاً". [نقد وحقيقة: ٧٧]. وليس إلى هذا حسب، بل عندما نزع إلى قراءة اشتراك الناقد والكاتب أيضاً، في منزع ثقافة كلّ منهما، بحيث لا ينفصل أحدهما عن الآخر، بعد أن فصلت بينهما ثقافة أخرى، ليقول: "إنَّهما عادا ليجتمعا مجدّداً في الشرط الصّعب نفسه، وإزاء موضع واحد، هو: اللُّغة". المصدر نفسه: ٧٨.

(٦) سورة النور؛ من الآية: ٣٥.

(٧*) أقول: في التأويلات شأن قرائيّ متعدّد، وتوصيفه يتوفر على مدارك معارفيَّة، يمكن أن تنظر في: مشكاة الأنوار؛ الغزالي: ١١٩، والتَّفسير الكبير؛ الرازي: ٨/ ٣٧٨، وتفسير القرآن الكريم؛ صدر المتألهين: ٤/ ٣٤٥.

(٨) سورة لقمان: الآية: ٢٧.

(٩) ينظر: الكينونة والزمان: ٥٠.

(١٠) سيميائيات النَّص؛ سعيد بنكَراد: ٣٧.

(١١) المصدر نفسه: ٣٥. وينظر: أسس علم لغة النَّص؛ مارجوت هاينه مان: ١٨٧.

(١٢*) لا ترتضي السيميائيات أن يكون مفهوم النَّصّ مقتصراً على "ذلك التَّسجيل المادي للاستعمال اللُّغويّ، وإنَّما النَّصّ ما تضمَّن شرط النَّسقيَّة السِّيميائيَّة الدالة،... بارت [مثلاً] يحلل اللباس والموضة والطعام والأثاث والسيارات والصورة الفوتتوغرافية وبلاغة الإشهار،... على أنها نصوص دالة وبؤرتها المعنى. وعليه فإنَّ النَّصّ "هو مذياع يلتقط عدة برامج في آن معاً، لكنه يقدمها بطريقة شبه منسجة".". السيميائيات الواصفة؛ أحمد يوسف: ١٦٥. وينظر: النص الغائب؛ محمد عزَّام: ٢١– ٢٢.

(١٣) نقد وحقيقة: ٢١.

(١٤) المصدر نفسه: ٢٤. وينظر: درس السيميولوجيا؛ رولان بارت: ٦١– ٦٣.

(١٥) من النَّصّ إلى الفعل: ١٥٥. وينظر: نظرية التأويل؛ بول ريكور: ١٢٤– ١٢٥.

(١٦*) في قراءة للاستاذ عبد الملك مرتاض، يستهل فيها كتابه "نظريَّة النَّصّ الأدبيّ"، تحت عنوان "النَّصّ الأدبيّ، إشكاليَّة الماهيَّة، زئبقيَّة المفهوم"، يرى فيها أنَّ النَّصّ ينفتح على المعاني والقراءات إلى نهاية الزمن، إلى يوم القيامة، وهي قراءة تحاكي نظر ما يتصوّره "بارت، وريكور"، يقع فيها على ثنائية من الكتابة والقراءة والتأويل المفتوح بل الخلود.

يقول الأستاذ "مرتاض": "النَّصّ... هذا الكلام المتجدّد، هذا النسيج اللفظي العجائبي، هذا الحيز المطرَّسُ بالحروف الصامتة وهو ناطق، وهذا الماثل أمامنا وهو غائب، وهذا الغائب عنا وهو ماثل؛ نمضي نحن، ويبقى هو، ونفنى نحن، ويخلد هو!... هو فوق مَن يكتبه، يسمو عليه ويتعالى،... إنَّ قراءته تظلّ نسبيه، ومفتوحة، بل أَوَّليَّة؛ مجرَّد ذلك إلى نهاية الزمن... لا كرستيفا ولا بارط، ولا طودوروف ولا قريماس!... النَّصّ هو ما نكتب، وهو ما لا نكتب أيضاً، هو الماثل بين ثنايا النَّصّ؛ هو ما يشخُصُ بين الأسطار، فالنصّ كتابةٌ، والكتابة قراءة، والقراءة تأويليَّة مهيأة للتلقِّي المفتوح إلى يوم القيامة. والكتابة قراءة، والقراءة كتابة: في حركة دائرية، وفي دائرة حركيَّة تستمد حيويتها من حركيَّة اللُّغة، وهي تتناسخ عبر لا نهائيَّة نفسها، وخِلالَ لا محدوديَّة حيزها...". نظريَّة النَّصّ الأدبيّ: ٣– ٤.

أقول: أنْ تنطلق من قراءةٍ توصيفها ليس فيه من التَّحصيل النِّهائيّ، إلا نتائج التَّعدُّد الإبداعيّ المعارفيّ، سيكون لك من الفِهْم إذن، قراءة وتفسير أيضاً: وهي كون النَّصّ جهازاً مفاهيمياً ذا جداول ومستوياتٍ يترشّح مبدؤها من افتراض: ليس من علم وإلا وقد وضع نفسه تجليّاً في نصّ، وليس من نظام يُفصح عن ذاته فيه إلا واتخذ من النَّصّ دليلاً عليه، وإذا كانت كلّ العلوم تتوسّط به جمعاً، فيخرج منهن كاشفاً لهن تجليّاً، فلا غرابةَ إذن أن تكون مفاهيمه من الأمتداد ما تشرَئِب إليها أنحاء اللغةٌ، وعوالم الفكرٌ، وحركيَّة الزمانٌ وانتماءات المكانٌ، وسلوكيات الثقافةٌ، بل قد وصل به الامتداد إلى ما تقارب والإنسان، ثُمَّ في جدل من فعلٍ في قراءة ونسقٍ في كتابة، والنَّصّ كُلّه ليس ما تقدَّم، بل هو ذلك المفهوم المهيّن عليها في إطلاقه. يقول "رولان بارت" "هذا هو شأن النَّصّ، إنَّه لا يمكن أن يكون هو ذاته إلا في اختلافه". درس السيميولوجيا؛ رولان بارت: ٦٣. وينظر: في مقاربة تلك التصوُّرات أيضاً: الكتابة الثانية؛ منذر عياشي: ١٠، وبعادها، والخطيئة والتَّكفير؛ عبد الغذّامي: ٢٧، و٤٨، و٦٩.

(١٧) ينظر: نظريَّة التَّأويل: ٦٤.

(١٨) ينظر: "مدخل أوليّ إلى علم النَّص"؛ فان دايك، بضمن كتاب: النظريَّة والنَّصّ، كيبيدي فارغا: ٦١– ٦٧، والتحليل اللغوي للنص؛ كلاوس برينكر: ٢٨، وأسس علم لغة النَّصّ؛ مارجوت هاينه مان: ١٢٠، و١٥٨– ١٦٧، و١٨٧، ومدخل إلى علم النص؛ زتسيسلاف واورزنياك: ٥٣– ٦٠، وعلم لغة النَّصّ؛ نحو آفاق جديدة؛ بحوث مترجمة: سعيد حسن بحيري: ١١٣– ١١٩، و٢٠٢– ٢١٠، ولسانيّات النَّصّ؛ كيرستن آدمتسيك: ٣٢، و١١١، واللِّسانيّات والفلسفة؛ إيتين جيلسون: ١١، وتطوُّر علم اللُّغة؛ جرهارد هلبش: ٢٣٤– ٢٤٢، ونصِّيّات؛ هيوج. سلفرمان: ١٢٧،والمصطلحات، المفاتيح لتحليل الخطاب؛ دومينيك مانغونو: ١٢٧– ١٢٩، ونظريَّة النَّصّ؛ حسين خمري: ٢٧٩، ونحو النَّصِّيَّة في دعاء السِّمات؛ عماد جبار كاظم: ٥.

(١٩) ينظر: مدخل إلى علم النَّصّ: ٥٩– ٦٠. وتطوُّر علم اللُّغة؛ جرهارد هلبش: ٢٣٦– ٢٤٠.

(٢٠) المصدر نفسه: ٦٠، وينظر: المصدر نفسه: ٣٥.

(٢١) ينظر: النص والخطاب والإجراء؛ بوجراند: ٨٨، ومدخل إلى علم النص؛ زتسيسلاف واورزنياك: ٣٦– ٣٧، وتطور علم اللغة؛ جرهارد هلبش: ٢٣٢– ٢٣٤.

(٢٢) مدخل إلى علم النَّصّ: ٦٠.

(٢٣) ينظر: مدخل إلى علم النَّصّ؛ زتسيسلاف واورزنياك: ٣٥.

(٢٤*) أقول مقاربةً، في قراءة من الأستاذ منذر عياشي، يقارب فيها قيماً من حضارة وأصول من تفكير تجسّد إبداع أمّة، حين ينتقل فيها "من خصوصيَّة اللُّغة في كلّ خطاب إلى خصوصيَّة النَّصّ" ودلالاته في التَّكوين والانتماء، يقول فيها:

"إنَّ النَّصّ نظام. ولكنَّه نظام يقول نفسه على نحو مخصوص وفق انتمائه إلى صنف معيّن من أصناف الخطاب: فهو في الخطاب الأدبيّ يدور على مبدأ الأجناس الأدبية. وهو في الخطاب اليومي يدور على مبدأ الاتصال النفعي والتداولي. وهو في الخطاب القرآني يدور على مبدأ الإعجاز. وإنَّ توزيع النص على هذه الأنواع من الخطاب، قد جعلهم يتعاملون مع كلّ نصّ وكأنَّه إنتاج وحده، أو كأنَّه لحظة في الوجود تقوم على مثال نفسها إنفراداً. وإنَّ الدَّلالة لتبدو لنا في كلّ هذا، أنَّها تأخذ معناها ليس ممّا تقوله لغة النَّصّ فقط، ولكن أيضاً من انتماء النَّصّ إلى نوع معيَّن من أنواع الخطاب، بالإضافة إلى الكيفيَّة التي ينفذّ بها كلّ نصّ أداءه ضمن نوع الخطاب الذي ينتمي إليه". [اللِّسانيّات والدَّلالة: ١٥].

ومن هنا لا تبدو لي مساءلة "أوزوالد ديكرو" للسانيات النَّصِّيَّة غريبة في جانب توصيفه لها وقراءة عدم تمكّنها من إيجاد ما يمكن أن يُختزل فيه النَّصّ، ناهيك بصياعة القواعد النَّصِّيَّة، حين يقول: "فإذا كان النَّصّ وحدة تواصليَّة سلسلتها اللسانيَّة (مهما كان امتدادها) ليست سوى الإنجاز، فإنَّنا لا نفهم كيف لبنائها أن يكون قابلاً للاختزال ــ سواء تعلَّق الأمر بانتاجها أم بتلقّيها ــ إلى عمل لضوابط لسانيَّة محضة". [القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان: ٥٣٩].

ولهذا استدرك في قراءة لقلب الأولويات في المساءلة، فبدلاً عن اختزال النَّصّ في الإنجاز اللِّسانيّ، صارت المسألة في سؤال هذا الإنجاز عن ماهية القواعد التي تشكّل النَّصّ، قال: "يجب من غير شكّ قلب الأولويات: ليس اختزال النَّصّ في إنجازه اللِّسانيّ، ولكن المقصود هو سؤال هذا الإنجاز فيما يتعلَّق بالعناصر التي تشهد على "إنشاء النص". ولقد يتطلب هذا هجر مفهوم "القواعد النَّصِّيَّة" نفسه. فإذا وُجِدت معايير للنصّيَّة، فإنَّها على أكثر تقدير معايير "للقبول". وإنَّ معايير القبول هذه إنَّما يُحدّدها بشكل واسع سياق المقام للإرسال وللتلقّي. وهكذا، يجب على اللِّسانيّات النَّصِّيَّة أن تُخلي المكان للتداوليَّة النَّصِّيَّة". [المصدر نفسه: ٥٣٩- ٥٤٠].

ولعلَّ منطق سياق التَّوصيف يتعالى على ما تقدَّم، متّخذاً من المعايير سلوك تكوين إلى نفي إمكانها في النَّصِّيَّة، حين يؤسّس من مقولة النَّصِّيَّة في نهائيَّات قراءتها، عدم إمكان حسم النَّصّ، لأنَّ النَّصّ يفضي إلى نتيجة عدم إمكان حسم النَّصِّيَّة، في قول لـ"هيوج. سلفرمان" [في كتابه: نصّيّات: ١٢٧]، قال: "إنَّ النَّصِّيَّة تؤسّس نصّاً بوصفه نصّاً بطريقة معيّنة. والنَّصِّيّات تؤسّس النَّص بوصفه ما لا يمكن حسمه. ونصِّيَّة نص ما تنتج معرفة بشأن النَّصّ. وهذه المعرفة التي تنتجها النصيَّة هي معرفة من نوع معيّن، و"عدم إمكانيَّة الحسم" في هذه النَّصِّيَّة لا تكمن في المعرفة المنتَجة، وإنَّما تكمن، بالأخرى، في منزلة النَّصّ الذي يحدث فيها الإنتاج. فالنَّصِّيَّة (عموماً) تُنتَج في تنصيص النّصّ (أي: في إضفاء النَّصِّيَّة على النَّصّ). والنَّصّ يتقديم نفسه كنصّ، يقدِّم نصّيَّة هي "عدم إمكان الحسم" فيها. فالنَّصّ هو ما لا يمكن حسمه بسبب من أنَّ نصيّته لا يمكن حسمها. ونصِّيَّة النَّصّ لا يمكن حسمها بسبب من أنَّ النَّصِّيَّة تحدث في المكان الذي يندّ فيه النّصّ عن التّعريف، والتَّحديد، والتّوصيف، أي حيث يمحو النّصّ نفسَه... فالنَّصِّيَّة تحدث حيثما يجعل النَّصّ نفسه بلا مركز of-center والنَّصّ بلا مركز (من دون مركز)، فنصيته هي تخلخله بطرائق معيّنة".

ولقد يتقرّر لديه، أعني: "سلفرمان"، أصل ذلك بما طرحه من موضوع: "النَّصِّيَّة: وحدة أم تعدّد؟"، حين وجد من تعدديَّة النَّصّ نتائج تفضي إليها تعدديَّة النَّصِّيَّات باختلاف القراءات وانفتاح التأويلات، يقول: "النَّصِّيَّة هي عدم إمكانيَّة النَّصّ على الحسم. والنَّصّ يتموقع عند السّطح البيني القائم بين المرئي/اللامرئي، والداخل/الخارج، والحضور/الغياب، والنَّصّ/السياق. النَّصّ هو ما لا يمكن حسمه. ولا يقع النَّصّ على أيّ جانب من جوانب هذه الثنائيات، ولا يمكن حسم وقوعه على أيّ جانب. فعدم إمكانيَّة النَّصّ على الحسم هي نصِّيَّة النَّصّ. وطبيعته بوصفه اختلافاً هي عدم إمكانيته على

الحسم. فنصِّيَّة النَّصّ هي شرط للنصّ وممارسته. وعلى أيّة حال، ليست النَّصِّيَّة واحدة. فلكلّ نصّ هناك نصيّات عديدة. وهذه النّصّيّات المختلفة تُقرأ وتؤوّل، ولا ترتبط بنصوص معيّنة. فهي جزء من النَّصّ العامّ". المصدر نفسه: ١٣٤.

(٢٥*) الإرسال والبثّ هنا على نحو عام، سواء على نحو الاستقبال والتَّلَقّي، أم البقاء في فضائه إلى التّحيين والأخذ والإفادة. أو على طريقة من قول "إمبرتو إيكو": "إنَّ النَّصّ إنَّما يُبَثُّ إلى امرئ جديد بتفعيله، حتَّى وإن كان الأمل بوجوده الملموس أو التَّجريبيّ معدوماً". [القارئ في الحكاية: ٦٤]. فالكتاب/التَّراث ــ النَّصّ ــ وهو على الرفوف لا يعني أنَّه غير مرسل، بل تمّ إرساله، وهو في انتظار مَن يفتح حياته بالبهجة، ويدخل على حروفه السّرور عن طريق القراءة وأفعالها. نظير ذلك أجهزة الاتّصال الحديثة، حين تبثّ إشارة ما في فضاء تحتاج إلى شفرة، أو "code" لاستقبالها وكشفها، وليس كلّ الأجهزة قادرة على تلقيها وفتحها، بل بعض منها فحسب بما ينماز به من تقنية وقدرة على فتحها وفكّ شفرتها، في تلقٍّ منتجٍ، وهل النَّصّ كذلك،...!. يبدو أنَّه يفوق تلك الأجهزة ــ على الرغم من وصفه جهازاً مؤسّساً ــ بامتياز وحي، وبثّ روح، إلى نحو معنى وقصد في إنسان.

(٢٦*) امتياز مرجعيَّة الوصف هنا تتمركز حول ذاتها، كما سيأتي من مفاهيم وإجراءات، وهي إذ ذاك تعني فاعليَّة الوصف نفسه، بمعنى أنَّ اسم الوصف، ثمَّة، وبطرح مدرسيّ توضيحيّ، هو متصوُّر الذات، أي: الذات الواصفة العالمة التي تموج في أمواج النَّصّ، تلك التي تمتلك سمة الإدراك والعقل المعرفيّ والإنتاجيّ، ولنقل فعل القراءة وإمكاناتها، وليس النَّصّ ذاته: ذلك التَّسجيل المكتوب في بعض من حدّه، كيف وهو عبارة عن صامت، ساكن ينطق ويتحرَّك بالقراءة، ويترشّح بالفهم، ويحيى بالتَّأويل، ويتقارب بالإدراك والاستيعاب، إنَّه مخطَّط هندسيّ لا يكون فعلاً إلا بتنفيذ من قارئ!، ولذلك تأتي الاستعارة هنا من العالِم الواصف، من باب التّذويت في العلم نفسه، لتصبح ذات النَّصّ – العلوم والفنون والمرجعيَّات والمصادر والموارد التي تشكّله – هي الواصفة، أي: تنتقل وتتحوّل الذات العالِمة الواصفة إلى ذات هي النَّصّ "الموازي"/الشارح؛ لتعمل على وصف النُّصوص وفهمها وتفسيرها. وكأنَّ الذات الواصفة تختفي خلف المُنتَج باسم المفعول؛ ليكون الأخير هو الكاشف عن نفسه – بوصفه جملة من القراءات السابقة – مرةً، والمترشِّح من النَّصّ الأصل الذي قدَّمه في تشكيل جديد مرةً أخرى.

وهنا يأتي أيضاً النَّصّ الفاعل، أي: النَّصّ الهدف، ليكوّن من الواصف على سمة التَّوافق والإمضاء قراءةً له، ويكون الأخير، أي: الواصف، مكوِّناً لشيء هو نفس المُنتج، باسم الفاعل، الكاشف عن النَّصّ.

وبعبارة أخرى: ثمَّة محاورة بين ثلاثيَّات التلقِّي: الكاتب والقارئ والنَّص، على نحو افتراض مرةً، وفاعليَّة موجودٍ في أخرى، قد ذاب كاتبٌ في متن، وتماهى واصفٌ في قراءة وشرح، وهكذا في جدلٍ، واصف وموصوف، وموصوف وواصف، وكلّ في فاعليَّة التلقِّي والإنتاج.

(٢٧*) قدَّم "روبير مارتان" [في مدخل لفهم اللِّسانيّات: ٢٧] جملة من التّساؤلات التي تضطلع بها "اللِّسانيّات الوصفيَّة"، وهو إذ يصف عمل اللِّسانيّ يجعل منه تحدياً شاملاً لكلّ ما يحيط به نظراً وإجراءً، قال: "أوّل أعمال اللِّسانيّ المعاينة والوصف: ولما كان ما يدرسه شيئاً من أشياء الكوْن يوجد قبل التصدي لفحصه، فإنَّ هذا الشيء قابل بمقتضى طبيعته لمعالجةٍ اختباريةٍ؛ لذا سنتساءل عن كيفية الوصف؛ والواقع أنَّ هذا السؤال يستلزم طرح سؤال آخر: "ماذا نصف؟"؛ "ما هي الظواهر القابلة للوصف؟ وكيف تُجمَع؟"، ومن ناحية أخرى كيف نحقّق ــ على افتراض أنّنا نمارس في شأن هذه الظواهر وصفاً سليماً ــ تأليفاً وصفيّاً؟".

وهو في سبيل الإجابة يعرض لمنهج يقوم على وصف، أوجب على نفسه القول فيه: "يجب ليكون الوصف وصفاً متماسكاً أن يخضع لمنطق يُهيكله، ومجمل القول: إنَّ ثلاثة جوانب تُعرض على تفكيرنا: [١] ـ ما هي الأشياء التي نجمعها؟. [٢] ـ ما هي إجراءات وصفها؟. [٣] ـ ما هي الهياكل الكفيلة بتنظيم وصفها؟.". [المصدر نفسه: ٢٧. التَّرقيم بسببي].

وقد يُرصد في سلوك منهجه ما يمكن أن يقرأ على أنَّه نقد، ومنطق في المعاجلة الوصفيَّة على مستوى اللِّسانيّات ومناهجها المتعدِّدة، ففي عتبة "ما هي مناهج الوصف؟"، يقول: "من اليسير أن نتصوّر أنَّ التقنيات الوصفيَّة تختلف شديد الاختلاف بحسب ما يختاره المرء من الأغراض، وما يحدّده لنفسه من الغايات". [المصدر نفسه: ٤٢ – ٤٣]. وفي عتبة "كيف يهيكل الوصف؟"، ينظر إلى قدرة اللِّسانيّات على التقدّم وما يفضي إلى تتعدّد الوجوه الوصفيَّة. وفي "المنطق الوصفيّ": ينتهي إلى استدراك ونتائج، ليقول: "لكن يوجد ما هو أكثر من هذا، فكل وصف يخضع لمنطق خاصّ به؛ افتح أيّ كتاب نحو، أو أيّ قاموس تريده تلاحظ أنَّه يعرض المعطيات بحسب شكل لا يتغيّر،... وإجمالاً فإنَّ المصنّفين يتوخّون "معايير تحريريَّة" بحيث لا يرمي الوصف فحسْب إلى الدقّة والاستقصاء وعدم تضارب الخصائص والقواعد، وإنَّما يهدف أيضاً إلى تماسك ما يعتمده من تنظيم خاصّ به". المصدر نفسه: ٥٨– ٥٩.

بيد أنَّ ما يلفت النظر فيه أيضاً، ذلك التكوين المعرفيّ الذي وضعه تحت عنوان: "ما هو الحدث اللِّسانيّ"، ليرفض "المقاربة الساذجة [التي] قد تبعث على الظن أنَّ الواقع يفرض نفسه قل اختياره على من يروم وصفَه، وأنَّ الأشياء تبدو بذاتها للعيان بكل وضوح. هكذا قد يروم اللساني مثلاً وصفَ كلمات لسان من الألسن، ونحو لسان آخر، وكيفية نطق هذه المجموعة أو تلك... هذا وهم غريب، فلا وجود لشيء من هذا خارج نطاق السعي إلى تعريف الأمور بكامل الدقة". [المصدر نفسه: ٢٨]. ولهذا حدّد في ضوء ذلك أن يكون ثمَّة لغة اصطلاحيَّة تقع على عتبة الوصف، وما على اللسانيّ المحلِّل أن يجري عليه في الوصف، فضلاً عمّا ينبغي عليه أن يحوزه من وعي في لحظته، يقول: ""يجب بخاصة أن ندرك أنَّ الظاهرة اللسانيَّة لا تعالج بمعزل عن قرارات اصطلاحية. إنْ قليلاً أو كثيراً، فللاشياء اللسانية حدود غير ثابتة، وهي تصنَّف إلى مجموعات فرعيَّة ضبابية طبقاً لحُزمة من المقاييس لا تتساوى في الالتزام بها؛ فللسانيّ ان يصطلح على الحدود التي يُسمح بالوصف في نطاقها، لا يوجد في اللسانيات شيء خام، وبمجرد أن يأتي المحلِّل حتى يتلاشى الشيء الخام، والمهم أن نعتمد قرارات معلَّلة ومفسَّرة تفسيراً واضحاً، وعلى اللسانيّ أن يكون في كل لحظة واعياً بما يفعله، فالغاية متواضعة، ولكنها هي وحدها المعقولة".

وفي وحدة من إدارك لمنهج ومقارنة يفترض "أنَّ الأشياء اللِّسانيَّة تندرج ضمن صنفين: [١] ــ الأشياء اللُّغويَّة: "الصوت" /ب/ في العربية (بلد، برز، باب...، بنت، استبد،...)... تنتمي هذه الأشياء إلى السلسلة الصوتية أو سلسلة الرسم. [٢] ـ أشياء ورَلسانية، فألأداة (Preposition) وصيغة الاحتمالي (Subjonctif)، والمفعول به (Complement dobjet) تتجسّم في أشياء لغوية، وهي ليست أشياء تُدرَك مباشرة، فالورَلسان يستعمل للكلام على اللسان، والأشياء التي يتناولها تُستنبَط من الملاحظة، ولا يمكن معاينتها بصفة مباشرة" إلى أن يقول: "والواقع أنَّ الأشياء اللغويَّة هي أيضاً من المجرّدات على غرار الأشياء الورلسانيَّة،... وما يبحث عنه اللسانيّ هو النمط. أما الشيء الورلسانيّ فهو أكثر تجريداً، ويحدّد كمجموعة من الأنماط، أو إن أردنا كشيء "ورَنمطي"." المصدر نفسه: ٣٢– ٣٣.

أقول: تقارب منهجيَّة الوصف النقديّ، ولاسيّما تصنيف الاشياء اللغويَّة، والأشياء ورالسانيَّة "ميتالسانيَّة" تقارب منهجيَّة الوصف الذي سنأتي عليها في الحديث عن اللُّغة الواصفة، وإمكانات قسمة "رودلف كارناب" للغة التي تتحدَّث عن

الأشياء الموضـوع، واللُّغـة الشارحة، بوصـفها فلسـفة تحليـل وتوضـيح للمعـارف، ولـيس إبـداع قضـايا فلسفيَّة لا صـلة لهـا بالواقع. ولا ريب في أنَّ كلاً منهما يتعيَّن بمعطيات الحدث اللِّسانيّ، الذي يشكّل حلقة النقد، ومحوريَّة الوصف.

(٢٨*) في سمة التَّبادليَّة مع ملحظ الاستقلاليَّة والتَّكامليَّة بعنوان: "مكانة اللِّسانيّات بين العلوم الإنسانيَّة" يعرض، رومان جاكوبسن [في الاتجاهات الأساسية في علم اللُّغة: ٤٤ – ٤٥]، ذلك الجدل الذي أجراه "سابير" منبّهاً على مكانة التَّبادل والتضايف المعرفيّ بين العلوم، يقول: "جادل سابير في أنَّ اللّسانيين ـ شاؤوا أم أبوا . يجب أن يصبحوا معنيين أكثر فأكثر بعدد من المشكلات الأنثروبولوجية، والاجتماعية، والنفسية التي تجتاح حقل اللغة، لأنَّه من الصعب على لسانيّ حديث أن يحدد نفسه بمادة بحثه التقليدية. وما لم يكن هذا اللساني ضيق الأفق نوعا ما، فإنّه لن يستطيع إلا أن يشترك، جزئياً أم كلياً، في االاهتمامات المتبادلة التي تربط اللسانيات بالانثروبولوجيا، وتاريخ الثقافة، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والفلسفة، وعلى نحو أبعد الفيزياء، والفلسجة". يقول "جاكوبسن": "ولنقل إنَّه ما لم ترتبط هاتان الفكرتان المتكاملتان . أي: الاستقلالية والتكامل ـ على نحو صميم، فإنَّ محاولتنا تصبح منحرفة نحو الهدف غير الصحيح؛... وبكلمات أخر، يجب ان تتصبَّ العناية، بشكل متساوٍ، على الصفات المميزة في بنية أي فرع من فروع المعرفة وتطوره، وأن تتصب، علاوة على ذلك، على الأسس المشتركة لهذه الصفات، وعلى مسالكها المتطورة، وأن تتصب أيضاً على اعتمادها المتبادل".

(٢٩) ينظر: القارئ والنَّصّ . العلامة والدلالة؛ سيزا قاسم: ١٣٣، وصناعة الخطاب؛ محمد بازّي: ٦٩.

(٣٠) ينظر: عتبات؛ عبد الخالق بلعابد: ١٩، وعتبات النَّصّ؛ يوسف الأدريسي:: ٢١.

(٣١) مدخل لجامع النَّصّ؛ جيرار جينيت: ٩٠. وينظر: المصطلحات، المفاتيح لتحليل الخطاب؛ دومينيك مانغونو: ٧٨.

(٣٢) مدخل لجامع النَّصّ؛ جيرار جينيت: ٩٠.

(٣٣) أَطْرَاسٌ (الأدب في الدرجة الثانية)؛ جيرار جينيت، ترجمة وتقديم: المختار حسني. مجلة فكر ونقد، العدد (١٦) ص: "ويب web" . الشبكة العالميَّة للمعلومات: http://www.aljabriabed.net/n16_11atras.(2).htm".

(٣٤) ينظر: المصدر نفسه، صفحة "ويب web". ودراسات في النَّص والتناصية؛ محمد خير البقاعي: ١٢٥، وآفاق في النص والتناصية؛ محمد خير البقاعي: ١٥٩، والمصطلحات، المفاتيح لتحليل الخطاب؛ دومينيك مانغونو: ٧٨– ٧٩.

(٣٥) أطراس، صفحة "ويب web".

(٣٦) المصدر نفسه. صفحة "ويب web".

(٣٧) المصدر نفسه. صفحة "ويب web".

(٣٨) المصدر نفسه. صفحة "ويب web".

(٣٩) المصدر نفسه. صفحة "ويب web". وينظر: مدخل لجامع النص؛ جيرار جينيت: ٩١.

(٤٠) مدخل لجماع النَّصّ: ٩١.

(٤١) المصدر نفسه: ٩٠.

أقول: على أيِّ مدى من الإنتاجيَّة المعرفيَّة إذن، تحوَّلت أصولها محوراً في النَّقد والتَّنوير، فصارت ثقافة بقراءة وتغيير، ثُمَّ قراءة بعقد من موضوعيَّة ونظريَّة فإجراء وتحوير، في النَّصّ الواصف، وأعني بذلك: عموم القراءات التي أصبحت نظريّات ومدارس، ثُمَّ علماً وفنّاً، واصفاً وموصوفاً في الآن معاً!.

(٤٢) العتبات؛ عبد الخالق بلعابد: ٤٤.

(٤٣) ينظر: المصدر نفسه: ٤٨.

(٤٤) المصدر نفسه: ١٢٧.

(٤٥) المصدر نفسه: ١٢٧.

(٤٦) ينظر: المصدر نفسه: ١٣١..

(٤٧) ينظر: التلقِّي والتَّأويل؛ محمد عزام: ٥٨.

(٤٨*) القراءة الشَّارحة، أو التَّعليقيَّة "Commentary": هي إحدى أنواع القراءة المتعدِّدة، وهي قراءة كالشّرح، تقف عند ظاهر النَّصّ، وتكتفي في شرحه بوضع كلمات بديلة تعبِّر عن معانيها وتعمل على بيانها، مع التَّوثيق والسّند. ينظر: مناهج النّقد الأدبي الحديث؛ وليد قصّاب: ٢٢٩- ٢٣٠، والخطيئة والتّكفير؛ عبد الله الغذّامي: ٧٠، والتّلقِّي والتَّأويل؛ محمد عزّام: ٥٨.

(٤٩) النَّظرية والنّصّ، "مدخل أولي إلى علم النَّص"؛ كيبيدي فارغا: ٦٤.

(٥٠) المصدر نفسه: ٦٤. والخط العريض في النَّصّ المقتبس من عندي.

(٥١) المصدر نفسه: ٦٤. ترقيم النص من: ١. إلى ٥، بسببي.

(٥٢*) تأخذ مقولات "**التَّحليل**"، و"**التَّفسير**" ـ وقد تقترن بمقولات وصفيَّة أخرى ـ في المعجمات المصطلحيَّة الحديثة الأدبيَّة واللِّسانيَّة، مفاهيم متقاربة، في قول: "منهج فكريّ مداره تفكيك الكلّ إلى عناصره المركّبة إيَّاه، ويقابل المنهج التأليفيّ (Synthetique)، أو (التَّأليف La synthese) ـ ويتعمد ـ على العكس ـ النَّظر في الأجزاء لاستنباط الخصائص المشتركة بينهما". [الأسلوبيَّة والأسلوب؛ عبد السلام المسدّي: ١١٥- ١١٦. وينظر: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة؛ سعيد علوش: ٧٥، و١٦٢- ١٦٣]. وفي [معجم تحليل الخطاب؛ باتريك شارودو: ٢٤٣]، يحيل التّفسير ابستمولوجياً إلى ما يسعى إليه من "إدراك معقولية الأفعال والتّفاعلات العادية، وفي اللغة العادية، تحيل كلمات "فسّر" و"تفسير" على سيناريوهات، وعلى أنماط من الخطاب والتفاعلات شديدة التنوُّع". وسنأتي في الوصف الثالث لاحقاً على مدار من حركة الفهم إلى آليّات التَّفسير والتَّفسير نفسه، بوصفه نصّاً إنتاجيّاً ثانياً على النَّصّ الأصل، ناهيك بالتَّأويل.

(٥٣) ينظر: النَّظرية والنّصّ، "مدخل أولي إلى علم النَّص"؛ كيبيدي فارغا: ٦٤- ٦٥.

(٥٤) علم النص: ٢٥٠.

(٥٥) المصدر نفسه: ٢٥١. والخطّ العريض بسببي.

(٥٦) التَّحليل النَّصِّيّ؛ رولان بارت، مقدِّمة المترجم: عبد الكبير الشرقاوي: ١١. وضع (**النَّصّ والواصف**)، هكذا بين قوسين، مع بيان الخطّ العريض عمقاً تصرّف من عندي. وليس في النَّصّ/الرسم الأصليّ المقتبس.

(٥٧) المصدر نفسه، مقدِّمة المترجم: عبد الكبير الشرقاوي: ١٦. الخط العريض بسببي للتوضيح.

(٥٨) ينظر: المصدر نفسه مقدِّمة المترجم: ١٤.

(٥٩) المصدر نفسه: ٤٨.

(٦٠*) يؤطِّر مفهوم **البنينة** في الثقافة المصطلحيَّة بثلاثة أوصاف، هي: "١ـ طريقة تحليل سيميائيّ، تقوم باختزال الطبقات وتقريب المقولات. ٢ـ وتنطلق (البنينة) من مسلَّمة، امتلاك العالم السِّيميائيّ لبنية. ٣ـ وتتطلَّب (البنينة)، إقامة مسبقة لمستويات تحليل منسجمة، وتقبل تداخل تعاريف العناصر (المبنينة)، ومصطلحات ذات علاقة منطقيَّة". معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة؛ سعيد علوش: ٥٢.

(٦١) ينظر: التحليل النَّصِّيّ، مقدِّمة المترجم: ١٤– ١٥.

(٦٢) ينظر: المصدر نفسه، مقدِّمة المترجم: ١٥– ١٦.

(٦٣) ينظر: المصدر نفسه، مقدِّمة المترجم: ١٦.

(٦٤*) في عنونة "أمبرتو إيكو" لكتابه الموسوم: "أن تقول الشّيء نفسه تقريباً". عتبات ما يجري ثمَّة، وأَجْمِلْ بها عبارةً، وباختصار شديد، عن ترجمة!. وإذا ما انفتحت دلالتها على قراءة، فهي من نصّ إلى نصّ آخر.

(٦٥*) لا ريبَ في أنَّ موضوع التَّحليل النَّصِّيّ متداخل جداً تداخلاً شديداً كتداخل لونٍ بماء، وقد مرّت بنا نظريات في القراءة والفهم والإنتاج والاستيعاب، وكلّها أشكال فيها من تحليل النَّصّ ما فيها، وعلى مستوى معرفيّ متعدِّد، إنْ لغةً أو موضوعاً، ناهيك بأنَّ تشكيلها إنَّما يترشّح منه مفهوم النَّصّ حدّاً ونظراً، فهي منه وإليه، بل عليه قيامتها أيضاً.

(٦٦) ذلك حين يكون "**التَّلْخيص**"، أحد وجوه النَّصّ الواصف/الشَّارح، يقول "بارت": إنَّ التَّلخيص يبرهن على أنَّ الحكاية هي، على نحو ما، بدون نهاية: يمكنك حشوها لا نهائيّاً؛...". التَّحليل النَّصِّيّ: ٥٠. وسنأتي عليه، إن شاء الله تعالى.

(٦٧*) إذا كانت الذّات القارئة قد تصل إلى حدّ التّشكيل النَّصِّيّ والتّعدُّدي بالقراءة بحسب "بارت"، فإنَّها، في قراءة "ريكور"، تبلغ حدّ "الحضور الأصليّ مع نفسها"، وهو تجريد يستند في مرجعيته، بعد تقرير ابتدائه إلى قول "إنَّها من صنع القراءة والنَّصّ"، إلى نتاج من قولٍ، هدفه تحديد معالم الهرمنوطيقا: "إنَّ فهم الذات يتمّ أمام النَّصّ ويتلقَّى منه شروط ذات أخرى مغايرة **للأنا** التي تتصدّى للقراءة. إذن، لا واحدة من الذاتيتين، لا ذاتيَّة الكاتب ولا ذاتية القارئ هي أولى، بمعنى حضور أصليّ للذات مع نفسها". من النَّصّ إلى الفعل: ٢٤– ٢٥. وينظر: النَّقد البنيويّ للحكاية؛ رولان بارت: ٨٠، وآفاق التَّناصيَّة؛ محمد خير البقاعي: ٢٠٧، وهو الأمر الذي يجعل من فعل القراء فعلاً معرفيّاً خالصاً.

(٦٨) التَّحليل النَّصِّيّ، مقدِّمة المترجم: ١٦.

(٦٩) ينظر: المصدر نفسه: ٣١– ٣٥، و٥٧– ٥٨، و٦٨، و٧٧.

(٧٠) التَّحليل النَّصِّيّ؛ رولان بارت: ٤٧، و٨٣، و١٠٣.

(٧١) المصدر نفسه: ٤٧. وينظر المصدر نفسه: ٤٣، و٨٣.

(٧٢) المصدر نفسه: ٤٧. وينظر: المصدر نفسه: ٤٣.

(٧٣) ينظر: المصدر نفسه: ٢٢، و٢٤، و٢٧، و٣١، و٧٥، و٧٩، و١١٤.

(٧٤*) انتظمت مفاهيم "**اللُّغة الواصفة**" على مقولات في مدوَّنة من تاريخيَّة الظُّهور والنشأة والتَّكوين، تتبع الباحثون مسالكها الأوليَّة وأصولها الاشتقاقيَّة بالدّرس والنقد المعرفيّ على مستوى المنطق وفلسفة اللُّغة، وهي قضايا أثيرت بقوة بعد القرن الرابع عشر الميلادي، لكنَّها انسلخت بعد ذلك العهد عن اهتمام الفلاسفة. ثُمّ برزت أهمِّيتها بشكل كبير في نهاية القرن التاسع عشر، إذ ظهر هذا المفهوم على المستوى التَّجريدي، المتصل بنظريَّة المعرفة في مجال المنطق والرياضيات. يمثل "التطهير اللُّغوي" لغة واصفة، شكلية، مشتركة تقوم بين الرياضيات والمنطق واللُّغات الطبيعيَّة، حيث يعالج الفكر العلميّ بوصفه نشاطاً لغويّاً وجوديّاً؛ أي: مظهراً يرتكز على الجانب التَّحليلي. ينظر في ذلك مثلاً: السِّيميائيَّات الواصفة؛ أحمد يوسف: ١٦٥، وموقف من الميتافيزيقا؛ زكي نجيب محفوظ: ١٨٦، ونظريّات معاصرة؛ جابر عصفور: ٢٧١، وفي فلسفة اللُّغة؛ محمود فهمي زيدان: ١١، وحفريّات في اللُّغة العربيَّة الواصفة – ١و٢؛ عبد الجليل أبو بكر غزالة: صفحة "ويب "web. https://www.arabiclanguageic.org/view_page.php?id=7516.
https://www.arabiclanguageic.org/view_page.php?id=7475

(٧٥) ينظر: معايير تحليل الأسلوب: ٤١.

(٧٦) المصدر نفسه: ٤٢.

(٧٧) المصدر نفسه: ٤٣.

(٧٨) المصدر نفسه: ٤٥.

(٧٩) المصدر نفسه: ٤٥.

(٨٠) المصدر نفسه: ٣٥.

(٨١) المصدر نفسه: ٤٣.

(٨٢) المصدر نفسه: ٣٦.

(٨٣) قضايا الشعرية: ٢٧، وينظر: أساسيّات اللُّغة؛ رومان جاكوبسن: ١١١– ١١٦.

(٨٤) قضايا الشعرية: ٢٧.

(٨٥) المصدر نفسه: ٢٧.

(٨٦*) أقول: هل تبدو مقولات "اللُّغة الواصفة" بتوصيف ما أنجزه التراث العربيّ مقاربةً؟!، وإلى أيّ مدى أمفهوميّ فحسب أم إجرائيّ، أم تفاعليّ؟. قد تبدو الإجابة رهناً بمنعطف من نصّ ودليل، ليس هنا موضع إطنابه، بل اقتضابه، فقد جاء في الإمتاع والمؤانسة [٢/ ١٣١]: "إنَّ الكلام على الكلام صعب،... لأنَّ الكلام على الأمور المعتمد فيها على صور الأمور وشكولها التي تنقسم بين المعقول وبين ما يكون بالحسّ مُمكِن، وفضاءُ هذا متّسع، والمجال فيه مختلف. أمَّا الكلام على الكلام فإنَّه يدور على نفسه، ويلتبس بعضه ببعضه ولهذا شقّ النَّحو، وما أشبه النَّحو من المنطق،...".

وهل تتعيَّن بذلك التَّوصيف والتقسيم للغة الموضوع، واللُّغة الشارحة أو الواصفة، أيضاً مقاربة من خطاب الدرس الأصوليّ وثقافة نظرية الوضع ومقولاته وأقسامه: التَّعيينية والتَّعيّنيَّة مثلاً، ولاسيَّما قراءة قسمة "الوضع الشَّخصيّ"، و"الوضع النَّوعيّ" منه باعتبار "الوضع الشخصيّ" عبارة عن تصوُّر الواضع للفظ تصوّراً تفصيلياً، فيضع كلمة محددة لمعنى معيَّن، و"الوضع النوعي" باعتباره تصوّراً إجمالياً، كتصوّر وزن فاعل، أو فعل، أو نحوهما من الصيغ الصرفيَّة، لوضع ما كان على وزنها لمعناها، ككتاب وكتب، ونحوهما؛ لأنَّه عبارة وضع نوع الكلمة لا شخصها، ليكون ما كان على وزن فاعل يشمل كلمات كثيرة، مثل: كاتب وضارب، قاتل، آكل،.. ولم يضع الواضع كلّ كلمة من هذه الكلمات بوضع مستقلّ، كما أنَّه لم يتصوّر كلّ كلمة بتصوّر مستقلّ، وإنَّما تصوّر ووضع المفهوم الجامع لهذه الكثرة وهو وزن (فاعل) الذي هو نوع منطقيّ لهذه الأفراد. ينظر: مفتاح الوصول؛ أحمد كاظم البهادلي: ١/ ٢٣٤.

يبدو لي أنَّها كذلك تماماً، إذ يمكن أن يكون مفهوما "الوضع الشخصيّ"، و"الوضع النَّوعيّ" من قبيل اللُّغة، اللُّغة الشارحة الاصطلاحيَّة، بل هما كذلك، ومثال "النَّوعيّ" مثلاً، تلك الهيئات "غير القابلة للتصوّر بنفسها، بل إنَّما يصحّ تصوّرها في مادّة من مواد اللَّفظ كهيئة كلمة ضرب، مثلاً ــ وهي هيئة الفعل الماضي ــ فإنَّ تصوّرها لا بدّ أن يكون في ضمن الضاد والراء والباء، أو ضمن الفاء والعين واللام في فَعَل. ولما كانت المواد محصورة، ولا يمكن تصوّر جميعها، فلا بدّ من الإشارة إلى أفرادها بعنوان عام، فيضع كلّ هيئة تكون على زنة فَعَل مثلاً أو زنة فاعل، أو غيرهما، ويتوصّل إلى تصوّر ذلك العام بوجود الهيئة في إحدى المواد كمادة فَعَل التي جرت الاصطلاحات عليها عند علماء العربيَّة". [أصول الفقه؛ محمد رضا المظفر: ١/ ٢٢. وينظر: مباحث الدليل اللَّفظيّ؛ محمود الهاشمي: ١/ ٩٤].

أقول: إنَّ قراءة الخطاب الأصوليّ لهذا التقسيم، نافذة بتفصيل، ليس هنا محلّ مناقشته، ولكن يمكن القول فيه: إنَّه ينحو باللُّغة إلى أنماط من العموميّات والأنساق المنطقيَّة، وهو ما تتحدَّث عنه القراءات الحديثة والمعاصرة في مبادئ "اللُّغة الواصفة"، ومهماتها السّيميائيَّة، كما سنأتي عليه لاحقاً.

(٨٧) قضايا الشعرية: ٣١.

(٨٨) المصدر نفسه: ٣١. وينظر: تفسير النَّصّ؛ ديتريش بُوسّه: ٢٣٩.

(٨٩) وينظر: علم اللُّغة العام؛ دي سوسور: ٣٤، وعلم اللُّغة؛ فندريس: ٣١، ونظريَّة التَّأويل؛ بول ريكور: ٩٩، والعلامة؛ أمبرتو إيكو: ٤٤، وسيميولوجيا اللُّغة؛ جوزف كورتيس: ١٠، ومدخل إلى علم الدَّلالة؛ فرانك بالمر: ٣٧، والمدخل إلى علم اللُّغة؛ كارل ديتربونتتج: ٣٣، وإشكاليَّات القراءة؛ نصر حامد أبو زيد: ٥٣، و٨٦، وأنظمة العلامة؛ سيزا قاسم: ٧٧، و١٧٥، و١٨٩، والسيميائيات؛ سعيد بنكراد: ٦٣، ونظرية النَّصّ؛ حسين خمري: ٢٧٩، وطوق اللُّغة، صابر الحباشة: ٧١– ٧٢، والعلامة والرمز؛ هيجل: ٢٩، و"ما اللغة"؛ أ. بنفنيست، بضمن كتاب اللُّغة، نصوص مختارة ومترجمة: محمد سبيلا: ٤١.

(٩٠) ينظر: تحليل الخطاب؛ ماريان يورغنسن: ٢٩.

(٩١) ينظر: المصدر نفسه: ٣٠– ٣١.

(٩٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٢٦.

(٩٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٣٩.

(٩٤*) أقول: لا ريبَ في أنَّ هذه الوظيفَّة هي الوظيفة الأساسيَّة التي تمثّل مسؤوليتها اللُّغة بداهةً، "أي: تحقيق التفاهم بين البشر"، وحين تنعكس على النَّصّ؛ فلأنَّه تجلٍ من تجليّاتها. ولها أيضاً (وهذا بالضّرورة ينسحب على النَّصّ أيضاً) من الوظائف الأخرى الكثير، [ينظر: قضايا الشعريَّة؛ رومان جاكوبسن: ٣٣]، فضلاً عن ذلك فأنَّ لها (وهو ما يجري عليه مفهوم النَّصّ الواصف) من السِّمات سمة "الانتقال إلى وصف وظيفة النُّصوص في المؤسّسات والعلوم المرتكزة على النَّصّ، مثل علم القانون وعلم اللاهوت...". تفسير النَّصّ؛ ديتريش بوسّه: ٢٥، والتّحليل اللُّغويّ للنّص؛ كلاوس برينكر: ١٢١، ونظريَّة النَّصّ؛ حسين خمري: ٦٧– ٧٦. ولعلّه يُضاف إليها ـ وليس الاقتصار عليه كما يقدر النظر في بعض مناهج التَّحليل ـ أنَّها أداة لتحليل الأفكار، والتَّشكيل المعرفيّ. ينظر: اللِّسانيّات والفلسفة؛ إيتين جيلسون: ١٧، وعلم لغة النَّصّ؛ نحو آفاق جديدة؛ بحوث مترجمة: سعيد حسن بحيري: ٤٧.

(٩٥) اللُّغة والأدب، بضمن كتاب: اللُّغة الخطاب، بحوث مختارة ترجمة سعيد الغانمي: ٢٩.

وللتأمّل فكراً وقراءة أيضاً، أقول: ينفي "ليونارد جاكسون" أن تكون المثالية الألسنيَّة هي المشكلة للواقع، ينفي إيمان سوسور نفسه بالتأويل الذي يرى أنَّ العالم مخلوق أو مبني باللُّغة، يقول: "إنَّ المثاليَّة الألسنيَّة بجميع أشكالها هي ضرب من الزيف. فالعالم الماديّ والاجتماعيّ ليس مبنيّاً باللُّغة، وليس ثمَّة دليل على أنَّ اللُّغة تحدد المفاهيم التي يمكن لنا أن نستحدثها. غير أنَّ هناك إمكانيات لافتة تنطوي عليها دراسة الطريقة التي تؤثِّر بها اللُّغة على الفكر البشري،...". بؤس البنيويَّة: ٣٠٩.

ولعلَّه بذلك يقترب كثيراً من نظر "بول ريكور"، يقول "ريكور": "فاللُّغة ليست عالماً مستقلاً بذاته. بل هي ليست عالماً. ولكن لكوننا نعيش في العالم، ولكوننا نتأثَّر بالمواقف فيه، ولكوننا نتجه بأنفسنا كُلِّيَّة إلى هذه المواقف، فإنَّ لدينا ما نقوله، ولدينا تجارب وخبرات ننقلها للغة. وفكرة نقل التجربة للغة هي الشرط الأنطولوجيّ للإحالة، وهو شرط أنطولوجيّ ينعكس

في اللُّغة بوصفها مسلَّمة ليس لها مسوّغ محايث، مسلمة تفترض استناداً إليها الوجود الموضوعيّ للأشياء الجزئية التي تدلّ عليها". نظريَّة التَّأويل: ٥٠- ٥١.

(٩٦) قضايا الشعريَّة: ٣٣.

(٩٧) العلاماتيَّة وعلم النَّصّ، ترجمة منذر عياشي: ١١٥.

(٩٨) التَّحليل النَّصِّيّ: ٢٧.

(٩٩) المصدر نفسه: ٢٧.

(١٠٠) المصدر نفسه: ٢٤.

(١٠١) المصدر نفسه: ٢٤.

(١٠٢) المصدر نفسه: ١١٠.

(١٠٣) ينظر: المصدر نفسه: ٤٣، ٤٧، و٨٣، و١٠٣.

(١٠٤) المصدر نفسه: ٤٧. وينظر: المصدر نفسه: ٤٣.

(١٠٥) المصدر نفسه: ٤٣.

لكي تتضح مقاربة "رولان بارت" بين النَّسق اللُّغويّ الواصف، واللُّغة الاعتياديَّة يمكن تقديم قراءة "روجر فاولر" في حديثه عن القواعد اللُّغويَّة، يقول "فاولر": "الكلمة (القواعد) في علم اللُّغة المعاصر معنيان مهمّان في الأقلّ. فنحن نقول من ناحية أن المتكلم يعرف قواعد لغته. وهو لا يعرفها. في العادة، معرفة شعوريَّة، ما لم يتدرب على علم اللُّغة تدريباً خاصّاً، وهو لا يستطيع أن يتحدّث حديثاً مقنعاً من طبيعة قواعده. والقواعد بهذا المعنى الأوَّل تشمل المعرفة اللُّغويَّة التي يملكها المتكلمون، والتي تمكنهم من إيصال لغتهم، و(القواعد) هنا مفهوم نفسي ذهنِّيّ. أمَّا المعنى الثاني، فيتعلَّق بعالم اللُّغة، وليس بالمتكلِّم، حيث يقال إنَّ عالم اللُّغة يكتب قواعد لغته. وهذه القواعد وصف شكلي واضح للغة... فالمتكلم لا يختزن معرفته اللُّغويَّة بالشكل الذي يتبنّاه اللُّغويّ لأغراضه التَّوضيحيَّة، وهو حينما ينتج جمله لا يتابع العمليَّة التي يوضّحها اللُّغويّ حينما يركّب اشتقاقات جمله نقطة فنقطة. وهذه المسألة الأخيرة ذات أهمِّيَّة قصوى... لأنَّ قواعد اللُّغويّ تولّد الجمل، والمتكلِّم ينتج الجمل (ويفهمها)، والعمليتان مستقلتان تماماً". [اللغة والخطاب؛ ترجمة سعيد الغانمي: ٦٣- ٦٤]. وسيأتي حديث آخر عن "ميشال فوكو" في الطرس الثانية يقارب فيه "فاولر" أيضاً.

ولأنَّ عمل الملاحظ والتَّوصيفيَّات اللُّغويَّة تجري على موضوع، نجده ينفي أن يكون "متن المنطوق" هو الموضوع "الحقيقيّ للوصف اللُّغويّ، بل هو مادة لغويَّة فقط، أي: مجموعة من الملاحظات التي يضع اللُّغويّ بالاعتماد عليها مفاهيمه القواعديَّة بحذر... إنَّ استعمال اللُّغويّ للمادّة الأوليَّة يجب أن يشتمل على تحويرين؛ الأوَّل: من الضروري إدخال شيء من "المثالية" بحيث لا يأخذ اللُّغويّ بالاعتماد الجمل المنحرفة التي تطرأ على المتن. والثاني: لا بدَّ أن يوجد اللغوي القواعد التي تسقط Project من المواد الملحوظة المتناهية إلى المجموعة اللامتناهيَّة من الجمل. ومعنى هذا أن تكون القواعد قوة "تنبؤيَّة" ". [المصدر نفسه: ٦٩].

أقول: تأخذ بي مرجعيَّة من ذاكرة إلى حوارٍ: كم تقارب هذه القراءة لماهية القواعد وأفقها المنسّق، ومستواها المثالي الحكميّ، كم تقارب مقولاتِ "الخليل بن أحمد" وقصّة ذلك الحكيم المستنبط، الذي دخل دار اللُّغة، تلك التي اجترح منها إجابة لسؤال العلل والحكمة المودعة في الأحكام الكلاميَّة والأنساق اللُّغويَّة المستعملة التي تمثّل الإنسان وعوالمه. ينظر: رواية القصة كاملة في: الإيضاح في علل النحو؛ أبو القاسم الزجاجي: ٦٥- ٦٦.

(١٠٦) التَّحليل النَّصِّيّ: ٨٣.

(١٠٧) المصدر نفسه: ٥٧.

(١٠٨) المصدر نفسه: ٤٣.

(١٠٩) المصدر نفسه: ٤٧.

(١١٠) المصدر نفسه: ٤٧.

(١١١) المصدر نفسه: ٤٩.

(١١٢) المصدر نفسه: ٤٩– ٥٠.

(١١٣) النقد البنيوي للحكاية: ٨٥.

(١١٤) المصدر نفسه: ٩٧.

(١١٥) ينظر: المصدر نفسه: ٦٠– ٦١.

(١١٦) المصدر نفسه: ٩٧.

(١١٧) ينظر: المصدر نفسه: ٩٨.

(١١٨) المصدر نفسه: ٩٩.

(١١٩*) أجدُ فيما أجراه "أمبرتو إيكو"، من قراءة النَّصّ مقاربة كبيرة بينه وبين "بارت" والقول بانفتاح النَّصّ وتعدُّديَّة المعاني فيه، بل انقاذ سرّه؛ لعدم اكتشافه، يقول "إيكو": "من أجل إنقاذ النَّصّ، أي: نقله من وضع الحاضن لدلالة ما والعودة به إلى طابعة اللامتناهي، على القارئ أن يتخيّل كلّ سطر يخفي دلالة خفيَّة. فعوض أن تقول الكلمات، فإنَّها تخفي ما لا تقول. إنَّ مجد القارئ يكمن في اكتشافه أنَّه بإمكان النصوص أن تقول كلّ شيء باستثناء ما يود الكاتب التدليل عليه. ففي اللحظة التي يتمّ فيها الكشف عن دلالة ما، ندرك أنَّها ليست الدَّلالة الجيدة، إنَّ الدَّلالة الجيدة هي التي ستأتي بعد ذلك، وهكذا دواليك. إنَّ... الخاسرين، هم الذين ينهون السّيرورة قائلين: "لقد فهمنا". إنَّ القارئ الحقيقيّ هو الذي يفهم أنَّ سرّ النَّصّ يمكن في عدمه". التَّأويل: ٤٣. وينظر في مقاربة هذا المعنى أيضاً: الأثر المفتوح؛ أمبرتو إيكو: ١٦.

(١٢٠) ينظر: نقد وحقيقة: ١١٥– ١١٦.

(١٢١) المصدر نفسه: ١٧.

(١٢٢) المصدر نفسه: ١٧.

(١٢٣) المصدر نفسه: ٨٢– ٨٣.

(١٢٤) المصدر نفسه: ٨٤.

(١٢٥) المصدر نفسه: ٨٥.

(١٢٦*) في إشارة من الدراسات الحديثة أنّ "تشارلز موريس" كان قد سبق إلى دراسة الرموز، قراءة وتأويلاً وتقسيماً على علاقات ثلاث: ١ـ ما يتعلّق بالشخص الذي يستعمله ليرمز به إلى شيء ما. ٢ـ ما يتعلّق بالشيء الذي يُرمَز إليه. ٣ـ ما يتعلّق بالرموز الأخرى التي قد تشترك معه في بناء صيغة أو عبارة. وهذه العلاقات الثلاث يطابقها ميادين ثلاثة في البحث، هي على التوالي: ١. البراجماطيقا. ٢. السمانطيقا. ٣ـ السنتاطيقا. وما اللُّغة إلا مَثَل من أمثلة الرموز، فالبحث فيها

ـ إذن ـ لا بدّ أن يتناول هذه الميادين الثلاثة إذا أُريدَ له أن يكون وافياً شاملا. ينظر: موقف من الميتافيزيقا؛ زكي نجيب محفوظ: ١٨٤، والسِّيميائيات أو نظرية العلامات؛ جيرار دولودال: ٥٢، و٩٥، والدلالات المفتوحة؛ أحمد يوسف: ٥٨.

أقول: إذا كان الأمر في قراءة الرمز والعلامة بهذه العلاقات، ناهيك بالتّشكيل الذي يتصادق معها اللُّغويَّة وغير اللغوية، فأنّى للتأويل أن يتوافق على قراءة أحادية، والنقد والأدب مداره على الخيالية والرمزيَّة والاستعارة؟. لقد تتسع مجالات القراءة ما يكون فاعلها الانفتاح دون الوقوف على أحادية منها، وإلا فلا تُسمَّى قراءة.

(١٢٧) الحقيقة والمنهج؛ هانز غادامير: ٥١١.

(١٢٨) ينظر: فلسفة اللغة؛ محمد مهران رشوان: ١٧٣. وفلسفة اللغة؛ إريك غريلو: ٩، وفلسفة اللغة؛ سيلفان أورو: ٧، و٣٥، و٥٧، و٨٥، و٩٦، والحقيقة والمنهج؛ هانز غادامير: ٥٣٠، ومدخل لفهم اللسانيّات؛ روبير مارتان: ١١٣، والفلسفة واللغة؛ الزواوي بغوره: ٧، وتأمّلات في فلسفة اللُّغة؛ عمر ظاهر: ١٩، و٩٣، و١٢٣، والسيميائيات الواصفة؛ أحمد يوسف: ١٦٨.

(١٢٩) في فلسفة اللغة؛ محمود فهمي زيدان: ٥٧.

(١٣٠) في اللِّسانيّات العامَّة؛ مصطفى غلفان: ٥٢. وينظر: الكتابة الثانية؛ منذر عياشي: ٤٨.

(١٣١) فلسفة اللغة؛ أريك غوبلو: ١٠- ١١.

(١٣٢*) أنبّه القارئَ أنَّ المقاربة ثمَّة مبنية على قراءة للأستاذ زكي نجيب محفوظة وترجمته لرؤى "كارناب"، في كتابه: موقف من الميتافيزيقا: ١٧٩، وما بعدها.

(١٣٣) ينظر: موقف من الميتافيزيقا؛ زكي نجيب محفوظ: ١٧٩، والسيميائيات الواصفة؛ أحمد يوسف: ١٧٨.

(١٣٤) ينظر: موقف من الميتافيزيقا؛ زكي نجيب محفوظ: ١٨٠.

(١٣٥) ينظر: المصدر نفسه: ١٨١.

(١٣٦) ينظر: المصدر نفسه: ١٨١- ١٨٢.

(١٣٧) ينظر: المصدر نفسه: ١٨٣.

(١٣٨) ينظر: المصدر نفسه: ١٨٥- ١٨٦.

(١٣٩) يعلّق الأستاذ زكي نجيب محفوظ، موضّحاً مصطلح، "Meta-language"، يقول: "الترجمة الحرفيَّة لهذه العبارة هي: "ما وراء اللُّغة"، والمقصود بها لغة تتحدَّث عن لغة أخرى، وقد فضَّلتُ أن أُسمِّيها بالعربيَّة "لغة الشَّرح" أي: اللُّغة التي تشرح بها لغة أخرى، فإذا شرحت اللُّغة الإنجليزية باللُّغة العربيَّة ــ مثلاً ـ كانت اللُّغة العربيَّة في هذه الحالة "لغة شارحة"." موقف من الميتافيزيقا: ١٨٦، هامش رقم: ٢٢.

(١٤٠*) يعقد "برتراند راسل" فصلاً عنوانه "لغة الأشياء" أيضاً يقترب فيه من هذا التمييز الذي عرضه "كارناب"، ولكن راسل يضيف إليه تُسميَّة أخرى، إذ يُسمِّي "لغة الأشياء"، فضلاً عن ذلك: "اللُّغة الأوليَّة"، وكذا "اللُّغة الشارحة"، بـ"اللُّغة الثانويَّة". يقول: "يجب بالتالي أن توجد لغة من الطِّراز الأدنى. سوف أعرِّف إحدى تلك اللُّغات وليس اللُّغة الوحيدة الممكنة. سوف أسمّيها أحياناً "لغة الأشياء"، وأحياناً "اللُّغة الأوليَّة". هدفي في هذا الفصل الحالي هو أن أعرِّف وأصف هذه اللُّغة الأساسيَّة. اللُّغة التي تليها في التَّنظيم الهرمي سوف أسميها ثانوية، وهكذا، ويجب أن يكون مفهوماً أنَّ كلّ لغة تشتمل على كلّ أسلافها". ما وراء المعنى والحقيقة: ٦٣.

(١٤١) ينظر: موقف من الميتافيزيقا: ١٨٦- ١٨٧.

(١٤٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٨٧.

(١٤٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٩٤.

(١٤٤) ينظر: المصدر نفسه: ١٩٤.

(١٤٥) ينظر: المصدر نفسه: ١٩٥.

(١٤٦) ينظر: المصدر نفسه: ١٩٥– ١٩٦.

(١٤٧) ينظر: المصدر نفسه: ١٩٥– ١٩٦.

(١٤٨) ينظر: الدَّلالات المفتوحة؛ أحمد يوسف: ٨٧. والكتابة الثانية؛ منذر عياشي: ٤٣.

(١٤٩) السِّيميائيّات الواصفة؛ أحمد يوسف: ١٧٣.

(١٥٠) المصدر نفسه: ١٦٧.

(١٥١) المصدر نفسه: ١٦٧.

(١٥٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٦٤.

(١٥٣) ينظر: الاتجاهات السّيميولوجيَّة المعاصرة؛ مارسيلو داسكال: ٣٤، وعلم الإشارة السيميولوجية؛ بييرجيرو: ١٩، و٢٣، والمدخل إلى علم اللغة؛ كارل ديتربونتتج: ٣٣، والسيميائيات الواصفة؛ أحمد يوسف: ١٦٤.

(١٥٤) السيميائيات الواصفة؛ أحمد يوسف: ١٧٣.

(١٥٥) ينظر: المصدر نفسه: ١٧٦.

(١٥٦) ينظر: المصدر نفسه: ١٦٩.

(١٥٧) ينظر: المصدر نفسه: ١٦٣. وينظر أيضاً للمقاربة: المصدر نفسه: ١٧٤.

(١٥٨) ينظر: المصدر نفسه: ١٦٢.

(١٥٩) ينظر: المصدر نفسه: ١٧٦.

(١٦٠) ينظر: المصدر نفسه: ١٧٢.

(١٦١) ينظر: حفريات اللُّغة العربيَّة الواصفة ـ ١؛ عبد الجليل أبو غزالة صفحة "Web".

(١٦٢) ينظر: المصدر نفسه: صفحة "Web":
https://www.arabiclanguageic.org/view_page.php?id=7475

(١٦٣) "اللُّغة العلميَّة لغة مُحْدَثَة"، بضمن كتاب اللُّغة، نصوص مختارة ومترجمة: محمد سبيلا: ٥٥.

(١٦٤) المصدر نفسه: ٥٥– ٥٦.

(١٦٥) "لا تصلح اللُّغة الطبيعيَّة للاستخدام العلميّ"، بضمن كتاب اللُّغة، نصوص مختارة ومترجمة: ٥٤.

(١٦٦) "اللغة الطبيعيَّة واللغات العلميَّة"، بضمن كتاب اللغة، نصوص مختارة ومترجمة: ٥٤.

(١٦٧) المصدر نفسه: ٥٤.

(١٦٨) المصدر نفسه: ٥٤– ٥٥.

(١٦٩) المصدر نفسه: ٥٥.

(١٧٠) المصدر نفسه: ٥٥.

(١٧١*) ليس غرضي أن أوظِّف قراءةً لتاريخيَّة التَّكوين والنشأة في ولوج مفهوم الهرمينوطيقا؛ إنَّ هذا له من المحلّ ما يكون فكراً، وإنَّما الوقوف على شأن يسير، كإشارة إلى مقدِّمة التفسير النَّصِّيّ، بوصفه نصّاً واصفاً. أمَّا عن تلك الجذور

الأولى، فللقارئ المزيد والنظر مثلاً في: فلسفة التأويل؛ هانز غادامير: ٦١، و٩٩، وإشكاليَّات القراءة وآليّات التأويل؛ نصر حامد أبو زيد: ١٣، وفهم الفهم؛ عادل مصطفى: ٣٣، وفهم النص؛ بوميد بوزيد: ١٣، ومن فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة؛ عبد الكريم الشرقي: ١٧، واللُّغة والتأويل؛ عمارة ناصر: ١٣، ونقد الهرمينوطيقا؛ مرتضى الحسني: ١٢، وهيرمينوطيقا؛ صفدر إلهي راد: ٧، و١٢.

(١٧٢*) إذا كانت إشكاليَّات الهرمينوطيقيا وقوانينها المبدئيَّة في التَّفسير تتضح في بعض حلٍّ بقراءة التّساؤلات، وثنائيَّات من الفهم والشرح والعكس، ومدار ما فيهما من التّرابطات، حتَّى يتكوَّن بذلك تأويل مخصوص تتشكَّل به حلقة الهرمنيوطيقيَّة، كما يقول "بول ريكور" في كتابه: [من النَّصّ إلى الفعل: ١٦٣]، و"هانز غادامير" في [فلسفة التأويل: ١٠٥، و١١٩]. وقراءات الكُلِّيَّة والجزئيَّة والعكس، فهل يمكن إجراء ذلك التّفصيل على أصول اعتباريَّة كُلِّيَّة من قولٍ للإمام الصّادق "φ": "**إنَّ هذا العلم عليه قفل مفتاحه المسألة**". [منية المريد؛ الشهيد الثاني: ١٧٥، و٢٥٩]. وإذا كان الأمر كذلك، فهل "يمكن لنا أن نقاربه بقراءة النَّصّ أيضاً، مع إمكان إحلال المتغيّرات، هكذا: العلم = النَّصّ. والمسألة = الوعي والقراءة؛ ليكون التّصوُّر بالمفهوم: إنَّ هذا النَّصّ ـــ أيّ نصّ كان ـــ عليه قفل، يحتاج إلى مفاتيحه، وهي مبادئ المسألة التي تتجلّى في أفعال القراءة، وآليّات الفَهْم والتَّفسير، ولا شكَّ في أنَّ فاعليَّة هذه الإجراءات تفضي حتماً إلى نتاج، على قاعدة ما يستلزمه السّؤال نفسه". [الذات بين الضّوء والمصباح؛ عماد جبار كاظم: ١٠٠، هامش رقم (٣٠٢). وينظر: المصدر نفسه: ٩٥، هامش رقم (٢٤٤)].

وهل يمكن أن نفهم من مركزيَّة ذلك التَّساؤل أيضاً ما يحلّ إشكاليّات ما يطرحه قول أمير المؤمنين "φ" "**النَّاسُ أعداءُ ما جَهِلوا**"، [شرح نهج البلاغة؛ ابن أبي الحديد: ١٨/ ٤٠٣، و٢٠/ ٨٦]، وذلك برفع موجبه، وهو الجهل/عدم معرفة، وما يستلزمه، للوصول منه إلى معرفةٍ، وفعلٍ، وتكامل إدراكيّ؟. يبدو أنَّ المسألة عنوان على إمكانات العقل والتَّدبُّر العميقين، وكلاهما، أعني: قَولي العصمة، دليلٌ على ذلك، وبرهنة على كثير من الإبستيميّات ومتعالياتها الكُلِّيَّة.

وأقول: هل يمكن أن نقارب هذه الفكرة الموضوعيَّة، كما تقدَّم من مقاربة سابقة في ثنائيَّة: "العدسة والقرص"، من ناحية البرامج المودعة في الحاسوب، وقدرة **العدسة/القراءة** على الإفادة منها لحلّ البيانات المشفّرة في **النَّصّ/القرص**، أو أنَّ العدسة ستظلّ تطوف في فلك لا تستطيع أن تقترب فتقرأ منه شيئاً، على الرغم من الأفكار المزروعة فيه؟!. ليس من شكّ في أنَّ الأمر يتطلّب برامج قرائيَّة سابقة متراكمة للوصول إلى معنى النَّصّ ودلالاته العميقة، بل لكي تبقى علاقة القراءة والكتابة جدليَّة مستمرة فاعلة أيضاً، وإلا سيكون الأمر أشبه بإعطاء قرطاس ودواة، لأعمى أبكم أصمّ، ثُمَّ يُطلب منه إعادة الإنتاج والقراءة والتَّفسير.

(١٧٣*) قدَّم "بول ريكور" ما أَسس عليه منطقه النَّظريّ والتَّطبيقيّ للتأويل على افتراض مسبق من قراءاته للكينونة والزمن"؛ لإدراك معاني الموجودات والسُّؤال عنها هرمنيوطيقياً، يقول: "إنَّ أهمّ افتراض ظاهراتي مسبق لفلسفة تأويل ما، هو أنَّ كلّ سؤال ينصب على موجود معيّن، سؤالٌ حول معنى هذا الموجود...". [من النصّ إلى الفعل: ٤٤]. مع تصحيح نظر، لفلسفة الهيرمينوطيقا، في أنَّها "لا تصبح فلسفة تأويل ـــ وليس منهجيَّة تفسير وفقه لغة فحسب ـــ إلا عندما تنكبُّ على شروط إمكانية تفسير وفقه لغة، ولو فيما وراء نظرية النص بعامة، على الشرط اللغوي... لكلّ تجربة. غير أنَّ هذا الشرط اللغوي نفسه، له افتراضه المسبق في نظرية الـ"معنى" العامة. يجب ان نفترض أنَّ التجربة في عموم كمالها... لها، في المبدأ، إمكانيَّة قول. يمكن للتجربة أن تقال، فهي تقتضي القول. وإدخالها في الكلام، لا يعني استبدالها بشيء آخر، بل يعني أنَّها تغدو نفسَها عندما يتلفَّظ بها المرء أو يطورها". يقول "يكور": "هو ذا الافتراض المسبق للـــ"معنى" الذي يحرّك التفسيرُ وفقه اللُّغة على مستوى صنف معيَّن من النصوص، النصوص التي ساهمت في تقليدنا التاريخيّ". المصدر نفسه: ٤٤.

(١٧٤) نظريَّة التَّأويل: ١١٧.

(١٧٥) من النَّص إلى الفعل: ٥٨.

(١٧٦) المصدر نفسه: ٧٩.

(١٧٧) نظريَّة التأويل: ٣٤. وينظر: من النَّص إلى الفعل: ٧٩- ٨٠.

(١٧٨) يقول "ريكور": "الخطاب وليس الكلام فحسب، تجلّي اللُّغة المنفلت. ذلك أنَّ الخطاب هو الذي يستدعي تلك السيرورة المعقدة على الدوام، المتعلقة بتشخيص الأشياء للذات، الذي يبدأ بالانزياح بين ما يُقال والقول، المستمر بالتَّدوين في الحرف والمنتهي في التَّرميزات المركَّبة لآثار الخطاب...". من النص إلى الفعل: ١٢٧.

(١٧٩) ينظر: من النَّص إلى الفعل: ٧٨، و١٤٢.

(١٨٠) ينظر: المصدر نفسه: ١٤٢.

(١٨١) المصدر نفسه: ٨١، و١٤٣. وينظر: نظريَّة التأويل: ٤٠- ٤٢.

(١٨٢) من النَّصّ إلى الفعل: ١٤١- ١٤٢. وينظر: المصدر نفسه: ٧٩- ٨٠.

(١٨٣) المصدر نفسه: ٧٩.

(١٨٤) ينظر: المصدر نفسه: ٨٠، و١٤٢. ونظريَّة التَّأويل: ٣٤، و٣٧.
(١٨٥*) يتساوق قول "تودوروف" مع نظر "ريكور"، في قراءة التجريد المخصوص باللُّغة، وحيوية الخطاب الذي تتجلَّى به اللُّغة، وهو التَّفريق الموضوعيّ بينهما، يقول "تودوروف": "تبدو عملية التفريق بين اللغة والخطاب سهلة للغاية في عينيّ كلٍّ من يتفكر في طبيعة اللغة. فاللغة، التي تتمثّل بالمفردات وقواعد النحو كعناصر أولية وبالجمل كنتاج أخير، حقيقة مجرَّدة. أمَّا الخطاب، الذي هو التَّجسيد المادي للغة، فيتحقّق بالضّرورة ضمن سياق معيَّن تدخل في تشكيله ليس فقط العناصر اللُّغويَّة، وإنَّما أيضاً الظّروف التي رافقت إنتاج هذه العناصر: المحاورون، والزمان، والمكان، ومن ثمّ العلاقات الكائنة بين هذه العناصر غير اللغوية. ففي حالة الخطاب، لم تعد القضية قضية جُمل فقط، كما هو الأمر في حالة اللغة، وإنَّما قضية جُمَلٍ ملفوظة، أو بصورة أكثر اختصاراً قضية ملفوظات". الرمز والتأويل: ٣١- ٣٢.
(١٨٦) من النَّصّ إلى الفعل: ٨٠. وينظر: نظريَّة التّأويل: ٣٧- ٣٩.
(١٨٧) ينظر: نظريَّة التّأويل: ٥٠.
(١٨٨) من النَّصّ إلى الفعل: ١٤٣.
(١٨٩) المصدر نفسه: ٨٠.
(١٩٠) المصدر نفسه: ١٠٥. وينظر: المصدر نفسه: ٧٨، و٨٥، و١٤١، ونظريَّة التَّأويل: ٥٦- ٥٧.
(١٩١) من النّصّ إلى الفعل: ١٠٥.
(١٩٢) المصدر نفسه: ١٤٢. وينظر: نظرية التأويل: ٥٧.
(١٩٣) نظريَّة التّأويل: ٥٧.
(١٩٤) من النَّص إلى الفعل: ١٠٧.
(١٩٥) نظرية التأويل: ٥٨- ٥٩.
(١٩٦) من النَّص إلى الفعل: ١٠٦.
(١٩٧) المصدر نفسه: ١٠٧.
(١٩٨) المصدر نفسه: ١٠٧.
(١٩٩) نظريَّة التّأويل: ٥٩.
النَّصّ لا يقتصر نظره التَّصوّري على حالة التَّواصل في متخيَّل "ريكور"، بل هو أعمق بكثير في شأن من المباعدة، يقول: "النَّصّ بالنِّسبة إليّ، أكثر بكثير من كونه حالة تواصل خاصة بين البشريَّة، فهو نموذج المباعدة في التواصل بهذا الصفة، يوحي بالخاصية الأساسية لتاريخيَّة التَّجربة الإنسانيَّة نفسها، على أنَّها تواصل في المباعدة وبها". من النَّصّ إلى الفعل: ٧٨.
(٢٠٠) نظريَّة التَّأويل: ٣٩.
(٢٠١) من النَّصّ إلى الفعل: ١٤٣. وينظر: المصدر نفسه: ٨١، ونظريَّة التَّأويل: ٤٢- ٤٤، و٥٨.
(٢٠٢) نظريَّة التَّأويل: ٣٩.
(٢٠٣) من النَّصّ إلى الفعل: ٨٥. وينظر: نظريَّة التّأويل: ٥٧.
(٢٠٤) ينظر: نظريَّة التأويل: ٥٥- ٥٦.
(٢٠٥) المصدر نفسه: ٤٢. وينظر: من النَّص إلى الفعل: ١٠٧- ١٠٨.
(٢٠٦) نظريَّة التَّأويل: ٤٥.
(٢٠٧) المصدر نفسه: ٤٤. وينظر: من النَّصّ إلى الفعل: ٨٧.
(٢٠٨) نظريَّة التَّأويل: ٦٠.
(٢٠٩) المصدر نفسه: ٦٠.